منازل الهدي

مختارات من تراث

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني

تصنيف

محمد جمال امام

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

قال بعض العارفين: "**إن لله تعالى على عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام، أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلي كيف تلقاني؛ والثاني عند خروج روحه يقول: عبدى ماذا صنعت في أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟**"

"**لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله**" أبو سليمان الدارانى

قال لقمان لابنه: "**يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة**"

"**إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره**" أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

الفهرست

الصفحة

مختارات من بعض* كتب كتاب "إحياء علوم الدين"

١- تعريف بكتاب إحياء علوم الدين ٤

٢- مقدمة ٧

٣- كتاب العلم ١٢

٤- كتاب التوبة ٣٥

٥- كتاب الصبر والشكر ٧٨

٦- كتاب ذم الكبر والعجب ١٠٧

٧- كتاب ذم الغرور ١٣٣

٨- كتاب آفات اللسان ١٥٠

٩- كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب ١٨٤

١٠- كتاب النية والإخلاق والصدق ٢٠٢

١١- كتاب المراقبة والمحاسبة ٢٢٣

١٢- كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٣٠

١٣- كتاب السماع والوجد ٢٤٧

* هذه مختارات من بعض الكتب وليست كلها، حيث تم حذف جوانب من تلك الكتب مثل الأمثلة التي كانت مستساغة في وقت كتابة الإمام الغزالي لها ولكنها لم تعد مستساغة للقارئ المعاصر، وكذلك تم حذف الكثير من الشطحات الصوفية التي قد لا تقنع من ليسوا بصوفيين وقد تشتت انتباه القارئ العادي مما يحول دون وصول الرسالة الرئيسية للكتاب إليه، فضلا عن بعض الاستفاضة والتكرار. (المصنف)

تعريف بكتاب "إحياء علوم الدين"

إحياء علوم الدين

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

صفحة من نسخة مخطوطة من «الإحياء».

إحياء علوم الدين أشهر مؤلفات الغزالي، ويضم الكتاب بأجزائه مباحث عدة في أمور الدين. حيث يتناول فيه الغزالي أحكام الإسلام وعقائده وأخلاقه بأسلوب يعنى بأحوال النفوس وخفاياها، وأمراض القلب الروحية، مما قوى تأثيره الروحي على قارئه. ويهتم الكتاب بكثير مما يهم الفرد المسلم في أمور دينه من حيث العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق.

أقسام الكتاب

قد بنى الغزالي كتابه على أربعة أرباع، كل ربع مقّسم الى عشرة كتب، على النحو الاتي:

ربع العبادات	ربع العادات	ربع المهلكات	ربع المنجيات
١ – العلم	١ – آداب الأكل	١ – شرح عجائب القلب	١ – التوبة

٢ – قواعد العقائد	٢ – آداب النكاح	٢ – رياضة النفس وتهذيب الأخلاق	٢ – الصبر والشكر
٣ – أسرار الطهارة	٣ – آداب الكسب والمعاش	٣ – آفة الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج	٣ – الخوف والرجاء
٤ – أسرار الصلاة ومهماتها	٤ – الحلال والحرام	٤ – آفات اللسان	٤ – الفقر والزهد
٥ – أسرار الزكاة	٥ – آداب الألفة والأخوة والصحبة	٥– آفات الغضب والحقد والحسد	٥ – التوحيد والتوكل
٦ – أسرار الصيام	٦ – آداب العزلة	٦ – ذم الدنيا	٦ – المحبة والشوق والأنس والرضا
٧ – أسرار الحج	٧ – آداب السفر	٧ – ذم البخل وذم حب المال	٧ – النية والصدق والإخلاص
٨ – آداب تلاوة القرآن	٨ – آداب السمع والوجد	٨ – ذم الجاه والرياء	٨ – المراقبة والمحاسبة
٩ – الأذكار والدعوات	٩ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩ – ذم الكبر والعجب	٩ – التفكر
١٠ – ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل	١٠ – آداب المعيشة وأخلاق النبوة	١٠ – ذم الغرور	١٠ – ذكر الموت وما بعده

أقوال علماء السنة في الإحياء

- قال **المحدث** عبد الرحيم العراقي في تخريجه للإحياء: إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه: خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي.
- قال عبد الغافر الفارسي: إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها.
- قال النووي: كاد الإحياء أن يكون قرآناً.
- قال **أبو محمد الكازروني**: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء.

- قال **عبد الله العيدروس**: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفهومات غزيرة غير التي قبلها. ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أثنى على كتاب الإحياء بما أثنى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه.
- ومن كلامه: أنا أشهد سراً وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين.
- ومن كلامه: من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصاً "إحياء علوم الدين" فهو البحر المحيط.
- قال **علي بن أبي بكر السقاف**: لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس.

أشعار الإحياء

احتوى كتاب الإحياء على كثير من الشِّعر الَّذي استشهد به الإمام الغزالي في موضوعات الكتاب، وقد جمع هذا الشعر صالح الشاعر في كتاب "المختارات الشعرية لأبي حامد الغزالي من كتاب إحياء علوم الدين". وقد عبر الإمام الغزالي عن قيمة هذا الشعر في قوله: "القلوب وإن كانت محترقةً في حبِّ الله فإنَّ البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن، وذلك لوزن الشِّعر ومشاكلته للطِّباع، ولكونه مشاكلاً للطَّبع اقتدر البَشَر على نظم الشِّعر، وأمَّا القرآن فنظمه خارجٌ عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجزٌ لا يدخل في قوَّة البشر؛ لعدم مشاكلته لطبعه"[٢].

شبهة من أنكر على الإحياء

وأما ما أنكر على كتاب الإحياء فإنكاره يرجع لسببين: إما مواضع مشكلة الظاهر . وفي التحقيق لا إشكال . أو أخبار وآثار ضعيفة أو موضوعة.

- فأما من جهة تلك المواضع، فلقد أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى (بالأجوبة) فبيّن فيه ما عسر فهمه على العامة.
- وأما من جهة ضعف أو وضع الأخبار التي يوردها الإمام في الإحياء، فحاصل ما أجيب به عن الغزالي . ومن المجيبين الحافظ العراقي . أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج، وهو في غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئاً بنحو صيغة "روى". وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة، فهو اعتراض ساقط، لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل، وكتابه في الرقائق فهو من قبلها، ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ في اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين . وهي كتب الأحكام لا الفضائل . يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووي في المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه، كما أشار إلى ذلك كله العراقي.

مختارات من كتاب:

إحياء علوم الدين

صنفه

حجة الإسلام

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي

وبهامشه تخريج الحافظ العراقي :

"المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار"

مقدمة:

أحمد الله أولاً حمداً كثيراً متوالياً، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين.[1] وأصلى وأسلم على رسله ثانيا صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين. واستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين. وأنتدب لقط تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين، المسرف في التقريع والأنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين، فلقد حل عن لساني عقدة الصمت، وطوقني عهدة الكلام وقلادة النطق، ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق، ومال ميلا يسيرا عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم، طمعا في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركا لبعض ما فُرط من إضاعة العمر، يائسا عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازا عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه: "**أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه**"[2]. ولعمري أنه لا سبب

---

[1] الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها وأعيا فهوم الملحدين عن دركها، فرجعت بكلالها أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة وافية بحصول الدرجات، وظلالها واقية من حلول الدركات وأهوالها، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من ظلمة القلوب وضلالها، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها.

وبعد فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه، فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عزب عني علمه، ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه، وأنا مع ذلك متباطىء في إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه، وتكرر السؤال من جماعة في إكماله فأجبت وبادرت إليه، ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار، فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه، فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة، وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول. والله أسأل أن ينفع به أنه خير مسئول. فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة، وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها، إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه في الإحياء، وحيث كرر المصنف ذكر الحديث فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة، وربما ذكرته فيه ثانيا وثالثا لغرض أو لذهول عن كونه تقدم، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم، وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه. وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه، بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات، وحيث لم أجد ذلك الحديث، ذكرت ما يغنى عنه غالبا وربما لم أذكره وسميته: ''**المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار**''، جعله الله خالصا لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم.

[2] حديث (أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه) رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجم الغفير، بل شمل الجماهير، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر، والجهل بأن الأمر إد، والخطب جد، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة، والأجل قريب والسفر بعيد، والزاد طفيف والخطر عظيم، والطريق سد، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومُكد. فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا، فصار يرى المعروف منكرا، والمنكر معروفا، حتى ظل علم الدين مندرسا، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمسا. ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسيا منسياً.

ولما كان هذا ثلما[٣] في الدين ملما وخطبا مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما إحياء لعلوم الدين، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند التبيين والسلف الصالحين.

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولا عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٤]، وأميز فيه العلم النافع من الضار إذ قال صلى الله عليه وسلم: "نعوذ بالله من علم لا ينفع"[٥]، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب: كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

---

[٣] ثلما: خللا (المعجم الوجيز).

[٤] حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما.

[٥] حديث (نعوذ بالله من علم لا ينفع) رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر، وكتاب ذكر الموت.

فأما ربع العبادات فأذكر فيه خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها، ودقائق سننها، وخفايا الورع في مجاريها، وهي مما لا يستغني عنها متدين.

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن، بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب، ثم العلامات التي بها تُتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خُلِق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذي به تُجتلب، وثمرتها التي منها تُستفاد، وعلامتها التي بها تُتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل.

ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتبا ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور:

الأول: حل ما عقَّدوه وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت[٦] على الأفهام لم يُتعرض لها في الكتب أصلا، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مُستَنكَر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه، ويغفل عنه رفقاؤه أو لا يغفل عن التنبيه، ولكن يسهو عن إيراده في الكتب أو لا يسهو، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف. فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لجامع هذه العلوم.

وإنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران:

أحدهما: وهو الباعث الأصلي، أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضرورة، لأن العلم الذي يُتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة، وأعني بعلم المكاشفة ما يُطلب منه كشف المعلوم فقط، وأعني بعلم المعاملة ما يُطلب منه مع الكشف العمل به. والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب، وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين، وعلم المعاملة طريق إليه، ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه. وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال. والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسي

---

[٦] اعتاصت: صعبت (المعجم الوجيز).

والاقتداء. ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر، أعني العلم بأعمال الجوارح، وإلى علم باطن، أعنى العلم بأعمال القلوب. والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة، والوارد على القلوب، التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت، إما محمود وإما مذموم. فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن. والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود، فكان المجموع أربعة أقسام، ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام.

الباعث الثاني: أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات، وهو مرتب على أربعة أرباع. والمتزيي بزي المحبوب محبوب، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا في استدراج القلوب. ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا في الجداول والرقوم، وسماه تقويم الصحة، ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذبا لهم إلى المطالعة. والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد. فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد. فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

كتاب العلم

وهو الكتاب الأول من ربع العبادات

كتاب العلم وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم.

الباب الثاني: في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا.

الباب الثالث: فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره.

الباب الرابع: في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل.

الباب الخامس: في آداب المعلم والمتعلم.

الباب السادس: في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة.

الباب السابع: في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار.

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عز وجل: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ (آل عمران ٣: ١٨) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا. وقال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة: ١١). وقال عز وجل: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقال تعالى: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ وقال تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به﴾ تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم. وقال عز وجل: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم. وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾، وقال تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله. وقال عز وجل: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم﴾ وقال تعالى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ وقال عز وجل: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وقال تعالى: ﴿خلق الإنسان¤ علمه البيان﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده"[٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"[٨]، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال صلى الله عليه وسلم: "لموت قبيلة أيسر من موت عالم"[٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[١٠]. وقال صلى الله عليه وسلم: "من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب"[١١]. وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: "فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي"[١٢]، فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة. وقال صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"[١٣]. نسأل الله حسن الخاتمة.

وقال **الشافعي** رحمة الله عليه من شرف العلم أن كل من نُسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رُفع عنه حزن. وقال **عمر** رضي الله عنه يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه، فإن أذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك، وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت. وحكى ذلك في وصايا **لقمان** لابنه قال يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء.

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾ (سورة التوبة: الآية ١٢٢) وقوله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (سورة النحل: الآية ٤٣، وسورة الأنبياء: الآية ٧)

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة" [١٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع" [١٥]. وقال صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم".

---

[7] حديث (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده) متفق عليه (البخاري:٧١ ومسلم: ١٠٧٣-١٧٥) من حديث معاوية دون قوله (ويلهمه رشده) وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير.

[8] حديث (العلماء ورثة الأنبياء) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء.

[9] حديث (لموت قبيلة أيسر من موت عالم) أخرجه الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء، وأصل الحديث عند أبي الدرداء.

[10] حديث (الناس معادن...) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

[11] حديث (من تفقه في دين الله كفاه الله همه) الحديث رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف.

[12] حديث (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

[13] حديث (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم.

[14] حديث (من سلك طريقا يطلب فيه علما) الحديث. أخرجه مسلم (٣٨/٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

وأما الآثار؛ فقال **ابن عباس** رضي الله عنهما: ذللت طالبا فعززت مطلوبا. وكذلك قال **ابن أبي مليكة** رحمه الله: ما رأيت مثل ابن عباس، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً، وإذا أفتى فأكثر الناس علماً. وقال **ابن المبارك** رحمه الله: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟ وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالا كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهم، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه. وقال **أبو الدرداء** رضي الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة. وقال أيضاً: كن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك. وقال **عطاء**: مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو. وقال **عمر** رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه. وقال **الشافعي** رضي الله عنه: طلب العلم أفضل من النافلة. وقال **ابن عبد الحكم** رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي، فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية. وقال **أبو الدرداء** رضي الله عنه: من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل: ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (سورة التوبة: الآية ١٢٢) والمراد هو التعليم والإرشاد، وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٨٧) وهو إيجاب للتعليم، وقوله تعالى: ﴿وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (سورة البقرة: الآية ١٤٦) وهو تحريم للكتمان،كما قال تعالى في الشهادة: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٨٣). وقال صلى الله عليه وسلم: "ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه"[١٦]. وقال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا﴾ (سورة فصلت: الآية ٣٣)، وقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ (سورة النحل: الآية ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾(سورة البقرة: الآية ١٢٩و الآية:١٥١، وسورة آل عمران، الآية:١٦٤ وسورة الجمعة، الآية:٢.).

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا رضي الله عنه إلى اليمن: "لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها"[١٧]. وقال عيسى صلى الله عليه وسلم: من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السموات. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس، بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم

---

[15] حديث (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع) أخرجه أحمد (٤/٢٣٩،٢٤٠) وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال.

[16] حديث (ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه) أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة.

[17] حديث (قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك...) الحديث. أخرجه أحمد(٥/٢٣٨) من حديث معاذ وفي الصحيحين (البخاري:٢٩٤٢ ومسلم: ٣٤/٢٤٠٧) من حديث سهل ابن سعد أنه قال ذلك لعلي.

فيضلون ويضلون"[١٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: "مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ"[١٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به"، (أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة). وقال صلى الله عليه وسلم: "لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخير"، (متفق عليه)

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر. وقال الحسن رحمه الله لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم، أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية. وقيل أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره؛ وقيل علِم عِلمك من يجهل، وتعلم ممن يعلم ما تجهل، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت. نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

في الشواهد العقلية اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته. وما لم تُفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال. فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها. والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة، فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فَضَلَه وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء. والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة، فإنه وصف كمال الله سبحانه، وبه شرُف الملائكة والأنبياء. واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يُطلب لغيره، وإلى ما يطلب لذاته، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا. فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فإنهما حجران لا منفعة لهما ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة؛ والذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى؛ والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشي بها والتوصل إلى المآرب والحاجات. وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يُتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال. هذه فضيلة العلم مطلقا، ثم تختلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها. وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل، فكان تعليمه إفادة للأفضل.

[18] حديث إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

[19] حديث مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى الحديث متفق عليه

الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة.

بيان العلم الذي هو فرض عين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم". واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة، ولا نطيل بنقل التفصيل، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده؛ فقال المتكلمون هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها، وقال المتصوفة المراد به هذا العلم فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل، وقال بعضهم هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان، وقال بعضهم هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه. والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يسترِيب فيه ما سنذكره، وهو أن العلم كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة. والمعاملة التي كُلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك. فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما، وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل. فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له. وإنما يجب غير ذلك بعوارض تُعرض، وليس ذلك ضروريا في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد. أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحا وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل، فلا يجب قبل الزوال وهكذا في بقية الصلوات. فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم، فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام. فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة، إذا كان هو مالكا حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته، دون نوافله فإن فعل ذلك نفل، فعلمه أيضا نفل، فلا يكون تعلمه فرض عين. وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين. وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص، إذ لا يجب على الأبكم تعلم

ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، فذلك أيضا واجب بحسب ما يقتضيه الحال. فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه، كما لو كان عند الإسلام لابسا للحرير، أو جالسا في الغصب، أو ناظرا إلى غير ذي محرم، فيجب تعريفه بذلك. وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه حتى إذا كان في بلد يُتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه. وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعا. ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك ،كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا. وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه، فقد علم العلم الذي هو فرض عين. فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه، فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا. فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه، والله أعلم. بيان العلم الذي هو فرض كفاية، اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم. والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية. وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح. فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. أما فرض الكفاية فهو علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يُتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يُستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه. وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات. وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه. أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان فهي محمودة كلها، ولكن قد يلتبس بها ما يُظن أنها شرعية وتكون مذمومة، فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة. أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب، الضرب الأول الأصول وهي أربعة، كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة وآثار الصحابة. والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة، وكذا الأثر فإنه أيضا يدل على السنة لأن الصحابة رضي

الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه، وربما لا تحيط العبارات بما أُدرك بالقرائن، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن. الضرب الثاني الفروع، وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم، حتى فُهم من اللفظ الملفوظ به غيره، كما فُهم من قوله عليه السلام: "لا يقضي القاضي وهو غضبان"، (متفق عليه) أنه لايقضي إذا كان خائفا أو جائعا أو متألما بمرض. وهذا على ضربين أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا، والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضي عند الله تعالى وما هو مكروه. والضرب الثالث المقدمات، وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع. إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب، وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة، فيصير تعلم تلك اللغة آلة. الضرب الرابع المتممات، وذلك في علم القرآن، فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضا على النقل، إذ اللغة بمجردها لا تستقل به، وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضا. وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند، وكذلك ما يتعلق به. فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة، بل كلها من فروض الكفايات. فإن قلت فصل لي علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله فاعلم أنه قسمان علم مكاشفة وعلم معاملة. فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وهو علم الصديقين والمقربين أعني علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا}، ومعنى قوله تعالى: {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون}، ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى. فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء، وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها. وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته، وبعضهم يدعي أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل، وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع

العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم. وأما القسم الثاني وهو علم المعاملة، فهو علم أحوال القلب، أما ما يحمد منها فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال والإحسان وحسن الظن وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب، وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى، وما زال حتى يعود من علم الآخرة؛ وأما ما يذم فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعنى وحب كثرة الكلام والصلف والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل وضعف الانتصار للحق واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى في سلب ما أعطى والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فواتها والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة، فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة وأضدادها وهي الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة. فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه. والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحدا يشتغل به ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به، هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان. وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله كيف يفعل في كذا وكذا فيقال له مثلك يسأل هذا البدوي، فيقول إن هذا وفق لما أغفلناه. وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه... فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه

وذبه عن سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة فأولئك أهل رضوان الله تعالى، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب وليس كل عمل علما، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا لا من حيث أنه متكفل بعلم الدين بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه. ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم. فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة، وفقيها في مصالح الخلق في الدنيا، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى، فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا، والآخرة إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا، شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين. فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة. أما **الإمام الشافعي** رحمه الله فيدل على أنه كان عابدا ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للعبادة وثلثا للنوم. وقال الحسن الكرابيسي بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة آية، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها. وقال الشافعي رحمه الله ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط، فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه. وقال أحمد بن يحيى بن الوزير خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا وقال نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا[20] كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها. وقال الشافعي رضي الله عنه كتب حكيم إلى حكيم قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم. وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب. وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه، روي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب وفي أي ثواب ترغب ومن أي عقاب ترهب وأي عافية تشكر وأي بلاء تذكر، فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صغر في عينك عملك. فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب. وقال الشافعي رضي الله عنه من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وروي أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه وقال للشافعي يوما أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر مُكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه،

[20] الفحش في الكلام (المعجم الوجيز)

وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل:{وكذلك مكنا ليوسف في الأرض}، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء وكل ذلك من علوم الآخرة. وقال الشافعي رضي الله عنه ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء، وقال: ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه. وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضت.هـ فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط، ثم كيف خالفوه فيها أيضا. ولهذا قال أبو ثور رحمه الله ما رأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعي رحمه الله تعالى، وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى، فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له، وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء، لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء. ولكثرة دعائه له قال له ابنه أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. فانظر هل لهذين من خلف. وكان أحمد رحمه الله يقول ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منة. وأما **الإمام مالك** رضي الله عنه فإنه كان أيضا متحليا بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له ما تقول يا مالك في طلب العلم فقال: حسن جميل، ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغا حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث. فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية. وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى. وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله الجدال في الدين ليس بشيء. ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله: إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري. ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري. ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمن علي من مالك. وروي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره، ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق **فضربه بالسياط** ولم يترك رواية الحديث. وقال مالك رحمه الله ما كان رجل صادقا في حديثه ولا يكذب إلا مُتع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف. وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار فقال لا، ولكن أحدثك سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول نسب المرء داره. وسأله الرشيد هل لك دار فقال لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها دارا فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن، فقال له أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم، وقد قال صلى الله عليه وسلم اختلاف أمتي رحمة، (حديث اختلاف أمتي رحمة ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ اختلاف

أصحابي لكم رحمة، **وإسناده ضعيف**)، وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" (متفق عليه)، وقال صلى الله عليه وسلم المدينة: "تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد" (متفق عليه)، وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها. يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهكذا كان زهد مالك في الدنيا، ولما حُمِلت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا، وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه. ويدل على احتقاره للدنيا ما رُوي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان، ويقال مصر، ما رأيت أحسن منه، فقلت لمالك رحمه الله ما أحسنه، فقال هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله، فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها. فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة. فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة، وإلى توقيره لتربة المدينة. ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقار للدنيا ما روي أنه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لي يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ. قال: فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عز، وإن أنتم أذللتموه ذَل، والعلم يؤتى ولا يأتي. فقال صدقت اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس. وأما **أبو حنيفة** رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابدا زاهدا بالله تعالى خائفا منه مريدا وجه الله تعالى بعلمه. فأما كونه عابدا فيُعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال: كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة. وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله، وروي أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر هذا هو الذي يحيي الليل، كله فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله، وقال أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته. وأما زهده فقد روي عن الربيع بن عاصم قال أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى، فضربه عشرين سوطا. فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب. قال الحكم بن هشام الثقفي حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يُضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى. وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها. وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم، قال فما رضي أبو حنيفة. قال فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه، فقال بعض من حضر ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة، أي هذه عادته، فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن ابن قحطبة فقل له خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة. قال ابنه ففعلت ذلك فقال الحسن: رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه. وروي أنه دعي إلى ولاية القضاء فقال أنا لا أصلح لهذا، فقيل له لم؟ فقال: إن كنت صادقا فما أصلح لها، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء. وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا. وقد قال ابن جريج قد بلغني عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى وقال شريك النخعي كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس. فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة. وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى

فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء، وسفيان أقل أتباعا من أحمد، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن. فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه.

الباب الثالث فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموما. وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها.

بيان علة ذم العلم المذموم، لعلك تقول العلم هو معرفة الشيء على ما هو به، وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما؟ فاعلم أن العلم لا يُذم لعينه، وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة، الأول أن يكون مؤديا إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات، وهو حق إذ شهد القرآن له وأنه سبب يُتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين. الثاني أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم فإنه في نفسه غير مذموم لذاته، إذ هو قسمان قسم حسابي وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، إذ قال عز وجل:{الشمس والقمر بحسبان}، وقال عز وجل:{والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم}؛ والثاني الأحكام وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه، ولكن قد ذمه الشرع. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا. وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه، أحدها أنه مضر بأكثر الخلق فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة وأنها الآلهة المدبرة، لأنها جواهر شريفة سماوية ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها، ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب، فإنه الضعيف يقصر نظره على الوسائط والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى. فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب، فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم. وثانيها أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا، فالحكم به حكم يُجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم. وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الإطلاع على حقائقها، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال، فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم، وربما يكون بخلافه، ومجرد الغيم ليس كافيا في مجيء المطر. وثالثها أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة، وذلك غاية الخسران. السبب الثالث الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة

علم، فهو مذموم في حقه، كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ففي ذلك مقنع للموفق. فكم من شخص خاض في العلوم واستضر بها، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين مما صار إليه. فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به. بيان ما بدل من ألفاظ العلوم، اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول. وهي خمسة ألفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة، فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم. اللفظ الأول الفقه، فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذا خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه. ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عز وجل:{ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم}، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة. فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا. ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب. اللفظ الثاني العلم، وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله لقد مات تسعة أعشار العلم فعرفه بالألف واللام، ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى. وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم. وهذا أيضا تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته، وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء، مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم. اللفظ الثالث التوحيد، وقد جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسُمي المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة، فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في

أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين وإن فهموه لم يتصفوا به وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله، فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل، ومن ثمراته أيضا ترك شكاية الخلق وترك الغضب عليهم والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره؟ فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين. اللفظ الرابع الذكر والتذكير، فقد قال الله تعالى:{وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}. وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات. أما القصص فهي بدعة وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص. وقال أحمد أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال وأخرج علي رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذا كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها فهذا هو التذكير المحمود شرعا. فإن من القصص ما ينفع سماعه ومنها ما يضر وإن كان صدقا ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار فمن هذا نُهي عنه. ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله ما أحوج الناس إلى قاص صادق، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى بها بأسا، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتفكيرات متداركة بحسنات تغطى عليها، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذرا فيه ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدرى فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار. وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس. وأما الشطح فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية، أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله أنا الحق، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى. فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة. ومهما أُنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق. فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام

ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة. الصنف الثاني من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر، وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقال صلى الله عليه وسلم: "كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يُكذَب الله ورسوله"[٢١]، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله، فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره. وقال عيسى عليه السلام: "لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء"، وفي لفظ آخر: "من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ومن منعها أهلها فقد ظلم، إن للحكمة حقا وإن لها أهلا فأعط كل ذي حق حقه". وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات. فهذا أيضا حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صُرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى. وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم. ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى اذهب إلى فرعون إنه طغى أنه إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغي على كل إنسان، وفي قوله تعالى وأن ألق عصاك، أي ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقيه. وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء. فهذه أمور يُدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا، وبعضها يُعلم بغالب الظن، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم. ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر. ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق، يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع. كمن يضع في كل مسألة يراها حقا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم: :من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" (متفق عليه). بل الشر في

[21] حديث كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون الحديث رواه البخاري موقوفا على علي ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم.

تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم لأنها مبدلة للثقة بالألفاظ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية. فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامي، فإن اتبعت هؤلاء اعتمادا على الإسم المشهور من غير التفات إلى ما عُرف في العصر الأول، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ. اللفظ الخامس وهو الحكمة، فإن إسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم. والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى:{يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا}. فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه وإلى ماذا نقل، وقس به بقية الألفاظ، واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق. فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث. وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يُمقت ذاكرها، ولذلك قال الثوري رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه. بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة، اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام، قسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه، كبذل المال فإن التبذير لا يُحمد فيه. فكذلك العلم فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا، إذ فيه ضرر يغلب نفعه، كعلم السحر والطلسمات والنجوم فبعضه لا فائدة فيه أصلا، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفيس مذمومة، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه. وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب. وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصارا وهو الأقل، واقتصادا وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مرد له إلى آخر العمر. فكن أحد رجلين، إما مشغولا بنفسك، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك. فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم. وإنما الأهم الذي أهمله الكل، علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم. إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها، وجميع ذلك مهلكات وإهمالها من الواجبات. وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب. فلا تشتغل بفروض الكفاية لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مُهلِك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه. وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه، وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك، وما أبعد ذلك منك، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها، فابتدىء بكتاب الله تعالى، ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعلم التفسير

وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه، وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت. ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء، فإن العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن يُنسى فيه المطلوب ويستكثر منه. فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث، ودع التعمق فيه واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة، فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء. ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها، فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن، وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر. وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة... وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت، فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه.

الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم. فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم. وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف، فكانوا إذا طُلبوا هربوا وأعرضوا، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات. فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم. فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعُلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن

غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن. ولسنا ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار، فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم، ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين.

الباب الخامس في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل. الوظيفة الأولى، تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف. إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف، وهو كذلك باطنا وظاهرا، قال الله تعالى:{إنما المشركون نجس}، تنبيها للعقول على الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يُجتنب ويُطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب" (متفق عليه)، والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب. ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء}، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا. فإن قلت كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم، فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة، فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة. إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة، ويرددونه بقلوبهم أخرى، وليس ذلك من العلم في شيء. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعضهم إنما العلم الخشية لقوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}، وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم. فإن قلت أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها، فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك

أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما، وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى. الوظيفة الثانية أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة، {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق. الوظيفة الثالثة أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم، بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق. وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته. قال الشعبي صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبل زيد بن ثابت يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم[٢٢]. فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان. فلا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، قال الله تعالى: {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد}، ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب، ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة. وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر:{إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا}، ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال:{فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا}، ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما. وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران. الوظيفه الرابعة أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع. الوظيفة الخامسة أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية. فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى/ أو معينة على السلوك نوعا من الإعانة، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود، والقُوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى. الوظيفة السادسة أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه، ويكتفي منه بشمه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة، أعني قسمي المعاملة والمكاشفة، فغاية المعاملة المكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى. الوظيفة السابعة أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج. الوظيفة الثامنة أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب. فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف. وبهذا تبين أن أشرف

[22] حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا هكذا نفعل قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم.

العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه. الوظيفة التاسعة أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران. وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم، أعني علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية، ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم. فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر، بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم، وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ومن قصد الله تعالى بالعلم، أي علم، كان نفعه ورفعه لا محالة. الوظيفة العاشرة أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره. ومعنى المهم ما يهمك، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة ،وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان، فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلا، والبدن مركبا والأعمال، سعيا إلى المقصد، ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى، ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون. فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة.

الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات علما الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة. فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار"[٢٣]. وقال عيسى عليه السلام إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين. فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وإنه بالخوض في العلم قد حُرم السلامة إن لم يدرك السعادة. وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قالوا وكيف يكون منافقا عليما؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل. وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء. وقيل لإبراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندما؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفوط. وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة رجل يدري، ويدري أنه يدري،

[23] حديث لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح.

فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه. وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله: إني لأرحم ثلاثة عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا. وقال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة. وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء:{واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين حتى قال فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث}، فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات فشُبه بالكلب، أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات. فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة، ولهم علامات فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من احدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. وقال سهل رحمه الله العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص؛ وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يُختم له به. وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل في علماء الدنيا:{وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا}، وقال تعالى في علماء الآخرة:{وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم}. وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصمت سلامة وعلم. وقال تعالى:{فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن}، الآية، فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا، ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به، قال الله تعالى:{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم}، وقال تعالى: {كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}. وقال عيسى عليه السلام مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد. وقال معاذ رحمه الله احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته. وقال عمر رضي الله عنه إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق. وقال ابن مسعود: سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب، فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى. وقال الحسن تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا، فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية. وقال مالك رحمه الله: إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه

النية، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئا. روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخي رضي الله عنهما أنه قال له شقيق منذ كم صحبتني؟ قال حاتم منذ ثلاث وثلاثين سنة. قال فما تعلمت مني في هذه المدة؟ قال ثماني مسائل. قال شقيق له إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل! قال يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإني لا أحب أن أكذب. فقال هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها؟ قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبي فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال أحسنت يا حاتم فما الثانية؟ فقال: نظرت في قول الله عز وجل:{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى}، فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق، فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى. الثالثة، أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل ممن معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل:{ما عندكم ينفذ وما عند الله باق}، فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظا. الرابعة، أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريما. الخامسة، أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض، ويلعن بعضهم بعضا، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل:{نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا}، فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى، فتركت عداوة الخلق عني. السادسة، نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضا، فرجعت إلى قول الله عز وجل:{إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا}، فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره. السابعة، نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى:{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}، فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت ما لي عنده. الثامنة، نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق، هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى:{ومن يتوكل على الله فهو حسبه}، فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي. قال شقيق يا حاتم وفقك الله تعالى، فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة.

الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل: اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين. فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ بيان حقيقة العقل وأقسامه: اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم. والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان، كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجري هذا

المجرى، فلا ينبغي أن يُطلب لجميع أقسامه حد واحد، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه. فالأول الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية. ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية فيقال لا فرق بينهما، إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوما وليس يخلقها في الحمار والبهائم، لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة. الثاني هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضا صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهر، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم. الثالث علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا. الرابع أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سُمي صاحبها عاقلا من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضا من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان. فالأول هو الأس والسنخ والمنبع والثاني هو الفرع الأقرب إليه والثالث فرع الأول والثاني إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهو الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ويشبه أن يكون أصل الإسم في أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك في الاستعمال، وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها، كما يعرف الشيء بثمرته. ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة، والاسم يطلق على جميعها. ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول، والصحيح وجودها بل هي الأصل، وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة، ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج، وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت.

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بتحميده يُستفتح كل كتاب، وبذكره يُصَدَّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وبإسمه يتسلى الأشقياء وأن أُرخي دونهم الحجاب، وضُرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب. ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب، وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب.

أما بعد، فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين. وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو أن أذنب الآدمى واجترم، فهى شنشنة نعرفها من أخزم[٢٤]، ومن أشبه أباه فما ظلم. ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمَّر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفى النفى والإثبات والوجود والعدم. ولقد قرع آدم سن الندم، وتندم على ما سبق منه وتقدم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم. بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين. فالمتجرد للخير مَلَك مقرب عند المليك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. فقد ازدُوِج في طينة الإنسان شائبتان، واصطُحِب فيه سجيتان، وكل عبد مصحح نَسَبِه، إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان. فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمُصِرّ على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان. فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين، نار الندم أو نار جهنم. فالإحراق بالنار ضرورى في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان.

وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين، قبل أن يُطوَى بساط الاختيار، ويُساق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات، بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها. ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان، **الركن الأول في نفس التوبة**، وبيان حدها[٢٥] وحقيقتها وأنها واجبة على الفور، وعلى جميع الأشخاص، وفي

---

[24] أخزم: رجل يضرب به المثل في عقوق الوالدين "شِنشِنة أعرفها من أخزم" [مثل] (الشنشنة: الطبيعة] وقد قاله أبو أخزم حينما وثب عليه أحفادة (أبناء أخزم) وأدموه: أي أنهم أشبهوا أباهم في عقوقه (المعجم العربي الأساسي)

[25] الحد: القول الدال على ماهية الشيء/ تعريفه (المعجم الوجيز)

جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة. **الركن الثاني فيما عنه التوبة**، وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر، وما يتعلق بالعباد، وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر. **الركن الثالث في بيان شروط التوبة**، ودوامها، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة. **الركن الرابع في المسبب الباعث على التوبة**، وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين. ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل.

الركن الأول في نفس التوبة وبيان حقيقة التوبة وحَدَّها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة، **علم وحال وفعل**، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث، والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه إطراد سنة الله في المُلك والملكوت. أما **العلم** فهو معرفة عِظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعلِه تأسف على الفعل المفوِّت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه **ندما**، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى **إرادة وقصدا إلى فعل** له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال. أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر. فالعلم هو الأول وهو مَطْلَع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك. فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيُطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيرا ما يُطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويُجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار قال صلى الله عليه وسلم: "الندم توبة"[٢٦]، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه فيه، أعني ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة أنه "ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ"، فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل: "هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب". وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة أنه: "خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء". وقال سهل ابن عبد الله التستري "التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال"، وكانه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

[26] حديث الندم توبة أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر، وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها. وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة.

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار الدالة على وجوب التوبة، أخرج مسلم من حديث الأغر المزنى "يا أيها الناس توبوا إلى الله"، الحديث. ولابن ماجه من حديث جابر "يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا"، الحديث، وسنده ضعيف، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله بنور الإيمان صدره، حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه، وإما بصير يُهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه. وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمِن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير، فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة؛ ومِن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق مُعوصة[٢٧]، وقطع عقبات متعِبة، ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء. وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ما هى، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى. وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض، فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه. فإذا عُرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعُلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محاله، وعُلِم أنه لا مُبعِد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفانى والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعا، وعُلِم أنه لا مُقرِّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعُلِم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى، فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يُشك فى أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب. وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة. وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففى التقليد والاتباع له مجال رحب يُتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليُلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين، فقد قال الله تعالى:{وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون}، وهذا أمر على العموم،

[27] صعبة، شاقة (معاجم اللغة)

وقال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا}، الآية، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب، مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: { إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له"[٢٨]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومه فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته"[٢٩]. ويُروى عن الحسن قال: "لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه يا آدم ورّثت ذويك التعب والنصب، وورثتهم التوبة، فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب". والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مُهلِكات ومُبعِدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها، ومن معانيها ترك المعاصى في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يُشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلافى. فكيف لا يكون واجبا، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله، فإن قلت تألم القلب أمر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب، فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويُحدِثه في نفسه فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر، الكل من خلق الله وفِعلِه، والله خلقكم وما تعملون. هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال. فإن قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا أن الكل من خلق الله تعالى، بل الاختيار أيضا من خلق الله، **والعبد مضطر في الاختيار الذي له**. فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول. فإنجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة، وبعد وقوع الشهوة للطعام، يسمى **اختيارا**، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه.

[28] حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف "أن الله يحب الشاب التائب" ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث على أن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب.

[29] حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة، الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس، زاد مسلم في حديث أنس "ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح" ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمأن بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا وفى بعض الألفاظ "قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله أنا ربك وأنت عبدى

فإذا حصل إنجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وإنجزام الإرادة، وهما أيضا من خلق الله. وإنجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع، وهما أيضا من خلق الله تعالى. ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة. ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس، ولا ينبعث هذا الميل إنبعاثا تاما ما لم يخلق علما بأنه موافق للنفس، إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم. فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الإرادة الجازمة والقدرة، والإرادة أبدا تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل. والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض. فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض، كما لا تُخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يُخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تُخلق الحياة إلا بعد الجسم، فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة، لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة لا أن العلم يُولّد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن. والإمكان ترتيب لا يقبل التغيير، لأن تغييره محال. فمهما وُجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف، فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة، وهي مرتبة في قضاء الله تعالى، الذي هو واحد، كلمح البصر، ترتيبا كليا لا يتغير، وظهورها بالتفصيل مُقدَّرُ بقدر لا يتعداها، وعنه العبارة بقوله تعالى: {**إنا كل شيء خلقناه بقدر**}، وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر}. وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب، بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت: {**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**} {**وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم**}، وعند هذا **تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة، فمن قائل أنه جبر محض، ومن قائل أنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب**. ولو فُتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأن القصور شامل لجميعهم، فلم يُدرك واحد منهم كنه هذا الأمر، ولم يُحط علمه بجوانبه، وتمام علمه يُنال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يُظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، وقد يُطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء. ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب، انكشف له سر القدر، وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه. فإن قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر، وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حُمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى

الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا إسمه، فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفنا أنصرفوا. سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرِجل أن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه، ولكن قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ. فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصدده، وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك، وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه. فاسم الوجوب يشمله بيان أن وجوب التوبة على الفور، أما وجوبها على الفور فلا يسترات فيه، إذ معرفة كون المعاصى مُهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور. المتقصى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل، بل هى من علوم المعاملة، وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهدته ما لم يَصِر باعثا عليه، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن"[30]، وما أراد به نفى الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة، كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والعاصى، وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مُبعِدا عن الله تعالى موجبا للمقت، فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان، وليس الإيمان بابا واحدا، بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية، كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان، وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تُقتَلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت وورودِه. فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنتشر فى الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يُسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها إلا الأقلون. فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته، كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لا يقع فجأة، فيقال له الصحيح يخاف المرض، ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة، ثم إذا خُتِم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار. فإن المخوَّف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر

[30] حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة

عشير مدته، إذ ليس لمدته آخر البتة، **فالبدار البدار إلى التوبة** قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم، ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى:{إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}. ولا يغرنك لفظ الإيمان، فتقول المراد بالآية الكافر، إذ بُين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع، سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذى هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل. ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل. فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر، وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع. وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثه على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هى لم تعمل عملها الذي تُراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها. ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في "كتاب العلم" بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة. اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا، إذ قال تعالى:{وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون}، فعمم الخطاب، ونور البصيرة أيضا يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعِد عن الله المقرِب إلى الشيطان، ولا يُتصوَّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان. إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين. والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر، لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة. وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل، فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس، وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه، ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدريج. فإن لم يقو ولم يكمل، سلَّمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده، حيث قال:{لأحتنكن ذريته إلا قليلا}، وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات. ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى. وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبيا كان أو غبيا. فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل "فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها** سجية نفس كل غانية هند"، بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه، ما لم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع في تبديلها. فإذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم

بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف، بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة. فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يُتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر، كما لم يستغن آدم. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله. وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع. ولا يُتصور الخلو في حق الآدمى عن هذا النقص وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة"[٣١]. ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}. وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره! فإن قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأن الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع، فما المراد بقولك التوبة واجبة فى كل حال؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا، وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه، كما يرتفع عن نَفَس الإنسان ظلمه إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا[٣٢] كما يصير بخار النفس في وجهه المرآة عند تراكمه خبثا، كما قال تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون}، فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث. ولا يكفى في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التى انطبعت في القلب، كما لا يكفى في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يُشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان. وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام "اتبع السيئة الحسنة تمحها"[٣٣]. فإذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات. هذا في قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة، فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل، إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة، كشغله في

---

[31] حديث أنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة أخرجه مسلم من حديث الأغر المزنى إلا أنه قال فى اليوم مائة مرة، وكذا عند أبي داود وللبخاري من حديث أبي هريرة "أنى لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة". وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات.

[32] ران عليه...: غلبه وغطاه (المعجم العربي الأساسي). رانت النفس: خبثت وغثت؛ ران على قلبه الذنب: قسا قلبه لاقترافه الذنب بعد الذنب (المعجم الوجيز)

[33] حديث اتبع السيئة الحسنة تمحها أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح.

عمل أصل المرآة، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلا، وكل ذلك يرجع إلى التوبة. فأما قولك أن هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان، أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق، وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كُلِف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار. والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبه في الوصول إليه، كما يقال الطهارة واجبة في الصلاة للتطوع، أى لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها، فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع، فالطهارة ليست واجبه عليه لأجلها، كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضى بأن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة، فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل. فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة، وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال نعم وما الذى حدث؟ فقال توسدك لهذا الحجر تَنَّعُم في الدنيا، فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم. أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه عَلَمُ فى صلاته حتى نزعه[34]، وشغله شِراك نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلق[35]، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا في شرعة الذى شرعه لكافة عباده؟ فإذا علم ذلك فلِم تاب عنه بتركه، وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا في قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وُعِد به؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلِم أنه على غير وجه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه، ما علم من الفقه هذا القدر، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه، فلِم تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه، وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون؟ فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الله، وبمكر الله، وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغَرور[36]. فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عَمَّر عُمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة. ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال: "**لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا**

---

[34] حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا

[35] حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق تقدم في الصلاة أيضا

[36] الغَرور: كل ما غر الإنسان أو سبب انخداعه، كالمال والجاه **والشيطان** (المعجم العربي الأساسي)

على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله"، وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد. وكل ساعة من العمر، بل كل نَفَس، جوهرة نفيسة لا خِلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأى جواهر أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا، فإن كنت لا تبكى على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة. لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس نيام فإذا ماتوا أنتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه، ولكل مصاب مصيبته، وقد رُفع الناس عن التدارك. قال بعض العارفين أن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد اعلمه أنه بقى من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه، فلا يجد إليه سبيلا، وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى:{وحيل بينهم وبين ما يشتهون}، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها}. فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرنى ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة. فيُغلَق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة. ولمثل هذا يقال:{وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أنى تبت الأن}، وقوله تعالى:{نما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب}، ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يُردِفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "اتبع السيئة الحسنة تمحها"، ولذلك قال لقمان لابنه: "**يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغته**". ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين، أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو، الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف[٣٧]، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت، فيأتى الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر. قال بعض العارفين: "إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام، أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فإنظر كيف تحفظ الأمانة **وأنظر إلي كيف تلقانى**، والثاني عند خروج روحه يقول: عبدى

[37] حديث أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لم أجد له أصلا

ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟"
وإليه الإشارة بقوله تعالى:{أوفوا بعهدى أوف بعهدكم}، وبقوله تعالى:{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون}.

بيان أن التوبة إذا استُجمِعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علِموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى؛ وعلموا أن القلب خُلِق سليما في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها؛ وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار. بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملِك لأن يكون لباسه، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره. وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه. وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير، **وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذي لا مرد له**، وهو المسمى فلاحا في قوله:{قد أفلح من زكاها}، ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا، يُستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويُستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يُتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل، وأعنى به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه. فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية. فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى:{وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات}، وقال تعالى:{غافر الذنب وقابل التوب}، إلى غير ذلك من الآيات. وقال صلى الله عليه وسلم "لله أفرح بتوبة أحدكم"، الحديث، والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"[٣٨]، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب، ولا طالب إلا وهو قابل. وقال صلى الله عليه وسلم: "لو عملتم الخطايا حتى

[38] حديث أن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار الحديث رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث، وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار.

تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم"[٣٩]. وقال أيضا: "إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة. فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة"[٤٠]. وقال صلى الله عليه وسلم: "كفارة الذنب الندامة"[٤١]. وقال صلى الله عليه وسلم: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له". ويروى أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة؟ قال نعم. فولى ثم رجع فقال: **يا رسول الله أكان يرانى وأنا أعملها؟** قال نعم، فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه"[٤٢]. ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه"[٤٣]. وقال صلى الله عليه وسلم: "أن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ"[٤٤]، والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى:{أنه كان للأوابين غفورا} في الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. وقال الفضيل: "قال الله تعالى بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذِر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم". وقال طلق بن حبيب: أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبِحوا تائبين وأمسوا تائبين. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه مُحيت عنه في أم الكتاب". ويروى أن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل أذنب، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتى لئن عدت لأعذبنك. فقال: يا رب أنت وأنا أنا، وعزتك أن لم تعصمني لأعودن. فعصمه الله تعالى. وقال بعضهم أن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب. وقال حبيب بن ثابت: تُعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما أني قد كنت مشفقا منه فيُغفر له. ويُروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق، إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق، **فاعمل ولا تيأس**. وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى:{إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف}، فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام. وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط

---

[39] حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب عليكم أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم.

[40] حديث أن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة أن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المرى وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث، ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر أن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ، قاله العقيلى

[41] حديث كفارة الذنب الندامة أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك اليشكرى ضعيف

[42] حديث أن حبشيا قال يا رسول الله أني كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال نعم الحديث لم أجد له أصلا

[43] حديث أن الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أزال أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى أورده المصنف بصيغة ويروى كذا، ولم يعزه الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا

[44] حديث أن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ، لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي

عنه أسرع من طرفة عين. قال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة. وقال بعضهم أنا اعلم متى يغفر الله لي، قيل ومتى، قال إذا تاب على. وقال آخر: أنا مِن أن أُحرم التوبة أخوف من أن أُحرم المغفرة؛ أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة. ويُروى أنه كان في بنى إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلنى؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: أن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندما وحزنا، فجُنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عى ولا بكم، وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شُرِّبوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرءوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقُوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة، حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة. فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

فإن قلت أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله أن الثوب إذا غُسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وأن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنه إذا مُنع الماء مدة وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى. بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مُكفِّرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلا للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة. فإن قلت فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه، فلم يشك فيه. فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة، فإن للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى، وليس يتحقق وجود جميع شروطها، كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يُسهل؟ وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته. فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة، وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتى في شروطها أن شاء الله تعالى.

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها.

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته. وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يُتوصل إليها إلا به واجبا. فمعرفة الذنوب إذن واجبة. والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل. وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عُرف شرحه في "كتاب عجائب القلب وغوائله"، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات، صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثرا من الآثار. فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا، وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في "ربع المهلكات". الثانية هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال. الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات. الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرع عنها جُمل من الذنوب. وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة، وهى الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية، اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بالعبد، خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض، وكل متناول من حق الغير فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى، كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف. وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب. وقد جاء فى الخبر: الدواوين ثلاثة، ديوان يُغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يُترك. فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد[٤٥].

قسمة ثالثة، اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة، وهذا ضعيف، إذ قال تعالى:{إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما}، وقال تعالى:{الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم}. وقال صلى الله عليه وسلم:

[45] حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقه بن موسى الدقيقى ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد من حديث سلمان رواه الطبراني أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها

"الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتُنبت الكبائر"[٤٦]. وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص: "**الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس**"[٤٧]. واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فقال ابن مسعود هن أربع، وقال ابن عمر هن سبع، وقال عبد الله بن عمرو هن تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر، وقال بعض السلف كل ما أُوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة، وقيل أنها مبهمة لا يُعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة. وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه}، فكل ما نهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب المكى: "الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار الواردة في الكبائر"، حكى المصنف عن أبي طالب المكى أنه قال: الكبائر سبع عشرة، جميعها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم، الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره، وشهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر والمسكر، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا، والزنا، واللواط، والقتل، والسرقة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين. وسأذكر ما ورد منها مرفوعا، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هى؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات". ولهما من حديث أبى بكرة: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: "الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قال قول الزور". ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال: الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين، وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قال: "قول الزور أو قال شهادة الزور". ولهما من حديث ابن مسعود، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يُطعَم معك، قلت ثم أى؟ قال: أن تزانى حليلة جارك". وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس "إنما هى أربع، لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا". وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: "بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا". وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف. وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلا قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: "الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله"، وله من حديث بريدة "أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضل الماء، ومنع الفحل"، وفيه صالح ابن حبان ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما. وأما الموقوفات فروى الطبرانى والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: "الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمه الله، واليأس من روح الله". وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال: الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التى حرم الله، وقذف

[46] حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن أن اجتنبت الكبائر رواه مسلم من حديث أبي هريرة وفى لفظ آخر كفارات لما بينهن إلا الكبائر

[47] حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمن الغموس رواه البخاري

المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا، والسحر، والزنا، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر، وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم. فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم. وإنما ذكرت الموقوفات حتى يُعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وغيرهم: أربعة في القلب وهى الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره، وأربع في اللسان وهى شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس وهى التى يُحق بها باطلا أو يُبطل بها حقا، وقيل هى التى يقتطع بها مال أمرىء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في النار، والسحر وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة، وثلاث في البطن وهى شرب الخمر والسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلما، وأكل الربا وهو يعلم، واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط، واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة، وواحدة في الرجلين وهى الفرار من الزحف، وواحدة في جميع الجسد وهى عقوق الوالدين، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وأن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما. هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهى جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر من الكبائر السبتان بالسبة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم[48]. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم لتعملون أعمالا هى أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر[49]. وقالت طائفة كل عَمْد كبيرة وكل ما نُهي عنه فهو كبيرة. وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة أم لا؟ لا يصح ما لم يُفهم معنى الكبيرة والمراد بها، كقول القائل السرقة حرام أم لا؟ ولا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده في السرقة. فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية بالاضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة إلى ضربه صغيرة بالاضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما تُوعَّد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعنى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أُوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ما عُجل عليه في الدنيا عقوبه واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهى عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيما وكبيرة لا محالة بالاضافة. إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها. فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نُقل من ألفاظ الصحابه يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات. نعم من

[48] حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بغير حق كما تقدم وهذا زائد على قذف المحصن

[49] حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هى أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد

المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى:{إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم}، وقول رسول صلى الله عليه وسلم: "الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر"، فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يُعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يُشك فيه فلا يدرى حكمه. فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إني أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها، فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ ثلاث من الكبائر[50]، وفي بعضها سبع من الكبائر[51]، وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر، الحديث، ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات، ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلاث، عُلم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يُطمع في عدد ما لم يعده الشرع، وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها. نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضا أكبر الكبائر. فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون}، أي ليكونوا عبيد لى، ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف ربه بالربوبية، ونفسه بالعبودية. ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام "الدنيا مزرعة الآخرة"[52]، فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة إليه، والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسد باب حياة النفوس، ويليه باب ما يسد المعايش التى بها حياة الناس. فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يُتصور أن تختلف فيها الملل. فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال.

فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب، **الأولى ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله**، وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله. ويتلو الجهل الذي يسمى كفرا، الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضا عين الجهل. فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا. ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه. ومراتب ذلك لاتنحصر، وهى تنقسم إلى ما يُعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما

[50] حديث ثلاث من الكبائر أخرجه الشيخان من حديث أبي بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاث

[51] حديث سبع من الكبائر رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع

[52] حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف

يُعلم أنه لا يدخل، وإلى ما يُشك فيه، وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع. **المرتبة الثانية النفوس،** إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله. فقتل النفس لا محالة من الكبائر، وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك، حتى الضرب. وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر، وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا. ولذلك لا يُتصور أن يكون الزنا مباحا في أصل شرع قُصد به الإصلاح، وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل، لأنه ليس يُفوِّت دوام الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تمييز الأنساب، ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل، وينبغى أن يكون أشد من اللواط، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته. **المرتبة الثالثة الأموال،** فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغى أن تُحفظ لتبقى ببقائها النفوس. إلا أن الأموال إذا أُخذت أمكن استردادها، وأن أُكلت أمكن تغريمها، فليس يعظم الأمر فيها. نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر؛ وذلك بأربع طرق أحدها الخُفية وهى السرقة، فإنه إذا لم يُطلع عليه غالبا كيف يُتدارك؛ والثاني أكل مال اليتيم، وهذا أيضا من الخُفية، وأعنى به في حق الولى والقَيِّم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه، فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يُعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه؛ والثالث تفويتها بشهادة الزور؛ والرابع أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس، فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك، ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلا، وبعضها أشد من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر، وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها، وعظِم في مصالح الدنيا تأثيرها. وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع، ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله. وإذا لم يُجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر، فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع؛ وإن عظَّم الشرع الزنا بالزجر عنه، فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره، وعظم الخيانة. والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك، وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين. فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وحقوق الوالدين. أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا، لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل من الكبائر. ولكن هذا لا يجرى في قطرة من الخمر، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع. وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع ولا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الريبة، ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا، وقد عظَّم الشرع أمره. وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون

كل ما يجب به الحد كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن. ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرِد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد، ويُجلد المشهود عليه بمجرد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات. فإذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره، فلا ينبغى أن يُجعل في حقه من الكبائر. وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة، وإلا فعِظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره. وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس في محل التوقف. وإذا قُطِع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر، إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه، فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد. ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليحلق بالكبائر. فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعنى بالكبيرة ما لا تُكفره الصلوات بحكم الشرع، وذلك مما انقسم إلى ما عُلم أنه لا تكفره قطعا، وإلى ما ينبغى أن تكفره، وإلى ما يُتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات وبعضه مشكوك فيه، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة، وإذن لا مطمع فيه، فطلب رفع الشك فيه محال. فإن قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرِد الشرع بما يستحيل معرفة حده، فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام، لأن دار التكليف هى دار الدنيا، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث أنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس. وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم}، ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا. وكل من يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى مقدماته كسماع الملاهى والأوتار، نعم من يشتهى الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع. فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات، فلا يُعرف تفصيلها إلا بالنص، ولم يرد النص بعد ولا حد جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد رُوى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم "الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة، إلا من ثلاث: إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة"[٥٣]، قيل ما ترك السنة؟ قيل الخروج عن الجماعة، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع، فيبقى لا محالة مبهما. فإن قلت الشهادة لا

[53] حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة، الحديث، أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد

تُقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أن من يسمع الملاهى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أوانى الذهب والفضة لا تُقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعى رضي الله عنه إذا شرب الحنفى النبيذ حدَدْته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات، كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب، فى بعض الأقوال، وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يُتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يُبقى على سمعته مع المخالفة بعد ذلك؛ ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع الملاهى واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل. فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن يُنظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة. ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة، كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره. فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم المُلك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت. وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت. ففي دنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا والمتأخر آخرة. ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة، فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت، ولا يُتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال. ولذلك قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون}، وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا"[54]، وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا الأمثال المحُوِجة إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال. وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى في صورة إن نُظر إلى معناه وجده صادقا، وإن نُظر إلى صورته وجده كاذبا. وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كُلِفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يُكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن"[55]، وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا، كما يسمى تفسير ما يُرى من الأمثلة في النوم تعبيرا، فيثبت لله تعالى يدا وإصبعا، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا، وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته"، فإنه

[54] حديث الناس نيام فإذا ماتوا أنتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى على بن أبى طالب

[55] حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم

لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة، فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا. من ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول. وكذلك قد يَرِد في أمر الآخرة ضرب أمثله يُكذِّب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده، كقوله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح "[٥٦] فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء، ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم، فكيف ينقلب العرض جسما، وهل هذا إلا محال. ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال:{وما يعقلها إلا العالمون}. فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا، وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة، حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل. فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت، وقد جُبِلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها. ولذلك عبر القرآن بقوله:{كن فيكون} عن نهاية القدرة، وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن" عن **سرعة التقليب**. فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال، فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر، كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألبته، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها. إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس، فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين ومعذبين وناجين وفائزين.. فافهم أن الناس في الآخرة يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز. والفائزون ينقسمون الى من يحلون في جنات عدن، أو جنات المأوى، أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يُعذَب قليلا، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار، كما ورد في الخبر[٥٧]، وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم. وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي. فلنذكر كيفية توزعها عليها. الرتبة الأولى، وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلك لا يُنال أصلا إلا بالمعرفة التي يُعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد، وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين،{أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} لا محالة، وكل محجوب من محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة، فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: "ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاءونا للحور العين، وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط"، وقالوا: "من يعبد الله بعوض فهو لئيم"، كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته، فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها. ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلا من

[56] الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد

[57] حديث أن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلأف سنة أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه "وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة

علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب. فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها. الرتبة الثانية، رتبة المعذبين، وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه. فإن رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يُعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة. بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى:{قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}، وهو أن تذر في بالكلية غير الله، ومعنى قوله تعالى:{الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}، ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يُكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف، مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم. فذلك يقتضى لا محالة نقصانا في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران، نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن. فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة، إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما قوة الإيمان وضعفه، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته. **وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين** قال الله تعالى:{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا}، ولذلك قال الخائفون من السلف: "إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا فى النجاة". واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد، وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب. ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة، وهو اختلاف الأنواع. فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع، وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه، وكثرة الطاعات وقلتها، وكثرة السيئات وقلتها. أما شدة العذاب فبشدة قُبح السيئات وكثرتها، وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات. وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان، وهو المعني بقوله تعالى:{وما ربك بظلام للعبيد}، وبقوله تعالى:{اليوم تجزى كل نفس بما كسبت}، وبقوله تعالى:{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}، وبقوله تعالى:{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمه أرجح، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم: "**سبقت رحمتى غضبى**"[58]، وقال تعالى:{وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}. فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة، فأما التفصيل فلا يُعرف إلا ظنا، ومستندة ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار. فنقول كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض، أعني الأركان الخمسة، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته. إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضأن كفارات لما بينهن، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفرا للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من

[58] حديث سبقت رحمتى غضبي أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية. نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى فذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى. وهم أيضا على أصناف، فمنهم السابقون، ومنهم من دونهم، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر، إذ الإحاطة بكلمة جلال الله غير ممكنة، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم، **وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل**. فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله، فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيمانا تقليديا فمن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين، وهم أيضا على درجات. فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها، أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج. فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا. وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مُخطِر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه فيُختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليديا. فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يُخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله، عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قُبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البُلْه[59] المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين. ففي الخبر آخر من يخرج من النار يُعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف[60]، فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام، كان يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال... والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "الجنة في السموات"[61]، والسموات من الدنيا، فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا؟! فالعارف مرحوم إذ بلى بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم" "ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال، وغنى قوم افتقر، وعزيز قوم ذل"[62]، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم، وامتحان وابتلاء من الله، وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي، وهو

---

[59] جمع أبله، الشخص الذي ضعف عقله وغلبت عليه الغفلة (المعجم العربي الأساسي)

[60] حديث أن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود

[61] حديث كون الجنة في السموات أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن كما ورد في الأخبار

[62] حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال الحديث أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمأن عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البحترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين

المعني بقوله صلى الله عليه وسلم: "البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل"[٦٣]، الحديث، فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بُلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال: "رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر"[٦٤]. فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام أنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط، فتكون حمارا برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى عُرِض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه. فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يُصادَف إلا في عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم. فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها. فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله، إذ ليس ذات الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه، كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته، إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مُودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها. وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الفإنى وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين. ولذلك قال تعالى:{ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم} فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال. فهذا حكم إنقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر. ولا يخرج من النار إلا موحد، ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك، فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغأنمين عن ماله، ومدة الرقبة والمال مدة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وإنما ينفع الصدق فى التوحيد. وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله، وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب. وهذا التوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة. فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار، وفي الخبر يقال أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان[٦٥]، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة. وأكثر ما يُدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان

---

63 حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل أخرجه الترمذي وصححه والنسائى في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون

64 حديث رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود

65 حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم

الذى لا يُترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها. ففى الأثر "أن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار". وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ يُنقل إليه عوضا عما ظلم به. وقد حُكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره ذنوب إخوانى من حسناتى أريد أن أزين بها صحيفتي. فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإن ذلك ظن يُصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يُساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم، إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك **النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها**. يُعبِر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا عما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التى لا يطلع الخلق عليها. فلذلك يجب علينا أن نُجوِّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة. فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه، فكيف غيره. ولكن قد أنكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد الا بسبب خفي فيه يقتضى العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى. ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد}، ولا قوله تعالى:{إن الله لا يظلم مثقال ذرة}. وكل ذلك صحيح، فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذى يُرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقا لقوله تعالى:{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}. وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ البصر يمكن الغلط فيه، إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها. وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب وإلا فما يُرى بها بعد الانفتاح فلا يُتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{ما كذب الفؤاد ما رأى}.

الرتبة الثالثة رتبة الناجين، وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيُخلع عليهم ولم يُقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة، فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق[٦٦] أنوار الاعتبار، فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون

[66] حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال: "هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم

وليس بمستيقن، والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء. والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك الرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "وما يدريك"[٦٧].

الرتبة الرابعة رتبة الفائزين، وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون السابقون. فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين، وهؤلاء هم المقربون. وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن. فليس بعد بيان الله بيان، والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى أجمله قوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين}، وقوله عز وجل: "أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عل قلب بشر". والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يُتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم، وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور **فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها**، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم، فهى غاية السعادات ونهاية اللذات. ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار. فهؤلاء قوم شَغَلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه، حتى عن أنفسهم؛ وهذه الحالة هى التى توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يُتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يُتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يُرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك

على سور بين الجنة والنار"، الحديث، وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار، ومن أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا، وأبو معشر تجيح السندى ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف، وللحاكم عن حذيفة قال: "أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت سيئاتهم من الجنة" الحديث، وقال صحيح على شرط الشيخين؛ وروى الثعلبى عن ابن عباس قال: الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر، الحديث، **هذا كذب موضوع، وفيه جماعة من الكذابين.**

[67] حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فإنكر ذلك رسول الله وقال ما يدريك رواه مسلم، قال المصنف: والأخبار في حق الصبيان متعارضة، قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه "وأما الرجل الطويل الذى في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة، فقيل يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال وأولاد المشركين"، وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال: "هم خدمة أهل الجنة"، وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يروية عن عيسى ابن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتلى الذرية وفيه ألا أن خياركم أبناء المشركين، ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة، الحديث، وإسناده صحيح. وفي الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث؛ وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة؛ ولأبي داود في آخر الحديث يا رسول الله فرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: "الله اعلم بما كانوا عاملين"؛ وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال: "الله اعلم بما كانوا عاملين"؛ وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد"، الحديث، وفيه عبد الله بن لهيعة، ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار وله من حديث عائشة "قلت يا رسول الله ذرارى المؤمنين، فقال مع آبائهم، قلت بلا عمل قال الله اعلم بما كانوا عاملين، قلت فذراري المشركين، قال مع آبائهم، قلت بلا عمل، قال الله اعلم بما كانوا عاملين"؛ وللطبرانى من حديث خديجة "قلت يا رسول الله أين أطفالى منك، قال في الجنة، قلت بلا عمل" قال الله اعلم بما كانوا عاملين. قلت أطفالى قبلك، قال في النار، قلت بلا عمل، قال لقد علم الله ما كانوا عاملين". وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم فإذن الإشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام.

حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته. فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الطيبة {وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون}. فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة. ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تُصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الأعمال أدومها وإن قل"[٦٨]. والأشياء تُستبان بأضداها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب. إلا أن الكبيرة قلما يُتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة. فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تُصورت كبيرة وحدها بغتة، ولم يُتفِق إليها عود، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره. ومنها أن يُستَصْغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صَغُر عند الله تعالى، لأن استعظامِه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات. ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه في الغفلة، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى في الغفلة، وقد جاء في الخبر: "المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره"[٦٩]. وقال بعضهم الذنب الذى لا يُغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عِظَم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة. وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: "لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عِظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها". وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهى كبيرة. وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين: "وإنكم لتعملون أعمالا هى في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات"، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة الى جلال الله تعالى من الكبائر. وبهذا السبب يَعظُم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويُتجاوز عن العامى في أمور لا يُتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف، ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه

[68] حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

[69] حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث، أخرجه البخارى من رواية الحارث بن سويد، قال: حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد، ولم يبين المرفوع من الموقوف؛ وقد رواه البيهقى في الشعب من هذا.

ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول أما رأيتنى كيف مزقت عِرضه، ويقول المناظر في مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساوية حتى أخجلته، وكيف استخففت به، وكيف لبست عليه؛ ويقول المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته، وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته. فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات، وإذا دُفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغى أن يكون في مصيبة وتأَسُف بسبب غلبة العدو عليه، وبسبب بعده من الله تعالى. ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدرى أنه إنما يُمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله، وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى:{ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير}. ومنها أن يأتى الذنب ويُظْهِره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فِعله، فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فغلظت به، فإن انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له، صارت جناية رابعه وتفاحش الأمر. وفى الخبر "كل الناس معافى إلا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه[٧٠]". وهذا لأن من صفات الله ونِعمه أنه يُظهِر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم لا تذنب فإن كان ولا بد فلا تُرغب غيرك فيه فتذنب ذنبين. ولذلك قال تعالى:{المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف}. وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية، ثم يهونها عليه، ومنها أن يكون المُذنِب عالما يُقتدى به، فإذا فعله بحيث يُرى ذلك منه كبر ذنبه، كإطلاق اللسان فى الأعراض، وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يُتَّبَع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آماد متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفى الخبر "من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا[٧١]". وقال تعالى:{ونكتب ما قدموا وآثارهم}، والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: "ويل للعالِم من الأتباع، يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق". وقال بعضهم: مِثل زلة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق ويغرق أهلها. وفى الإسرائيليات أن عالما كان يُضِل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهرا، فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل له: **إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار.** فبهذا يتضح أن أمر العلماء مُخطِر، فعليهم وظيفتان إحداهما ترك الذنب والأخرى إخفاءه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا أتُبِعوا، فإذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير، ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق، فيُتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام، ويكون هو السبب في جميع ذلك. فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران. وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها.

---

[70] حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين، الحديث، متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى.

[71] حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الحديث أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله.

الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر: قد ذكرنا أن **التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا**، وذلك الندم أورثه العِلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، فلا بد من بيانها. أما **العلم** فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتى، وأما **الندم** فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأى عزيز أعز عليه من نفسه، وأى عقوبة أشد من النار، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى، وأى مُخبِر أصدق من الله ورسوله. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع. وفى الخبر "جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة[72]". قال: "جالسوا التوابين فإن رحمه الله الى النادم أقرب"، وقال أيضا: "فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب"، وقال أيضا: "التائب أسرع دمعا وأرق قلبا"، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة. وفي الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين قي العبادة ولم ير قبول توبته، فقال: "وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه". فإن قُلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع، فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه، فإذا قُدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب، كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها. فهذا شرط تمام الندم، وينبغى أن يدوم الى الموت، وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه، من حيث أنه سِرقة وزنا، بل من حيث أنه من مخالفة أمر الله تعالى، وذلك جار في كل ذنب. وأما **القصد** الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك، فله تعلق بالحال، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض. وهو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط، وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت. وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونَفَسا نفسا، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها، والى المعاصى ما الذى قارفه منها. فإن كان قد ترك صلاة، أو صلاها فى ثوب نجس، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية، فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد. وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه، أو أفطر عمدا، أو نسى النية بالليل ولم يقض، فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه. وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه، لا من زمان البلوغ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبى، فيؤدي ما علِم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلا الأصناف الثمانية، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى، فيقضى جميع ذلك،

[72] حديث جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعا، وهو من قول عون بن عبد الله، رواه ابن أبى الدنيا في التوبة.

فإن ذلك لا يجزيه أصلا. وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء. وأما الحج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليُصرف إليه الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإن مات قبل الحج مات عاصيا. قال عليه الصلاة والسلام: "من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا[٧٣]". والعجز الطارىء بعد القدرة لا يُسقط عنه الحج. فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها. وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر الى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيث كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها"[٧٤]، بل من قوله تعالى:{إن الحسنات يذهبن السيئات}، فيُكَفِّر سماع الملاهى بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جُنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله، وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه. وعد جميع المعاصى غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه بحسنة تضادها. والمتضادات هى المتناسبات، فلذلك ينبغى أن تُمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظَب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى. ويدل على أن الشىء يُكفَّر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها، فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم، قال صلى الله عليه وسلم: "من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم"[٧٥]، وفى لفظ آخر: "إلا الهم بطلب المعيشة"، وفى حديث عائشة رضى الله عنها: "إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه"[٧٦]. ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع. فإن قلت هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو

---

[73] حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم فى الحج.

[74] حديث اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس

[75] حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم وفى لفظ آخر إلا الهم فى طلب المعيشة أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف، تقدم فى النكاح

[76] حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم وتقدم أيضا فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن

خطيئة، فكيف يكون كفارة؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة. فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى. فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها. فيقابِل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يُعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد. وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد إما فى النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعنى به الإيذاء المحض. أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو فى عهدة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص، فإن لم يُعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم ويحكِّمَه فى روحه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله، ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى، بل عليه أن يتمسك بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن أمَّر هذه الى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبوله عند الله تعالى، بدليل ما روى أن ما عز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت فرده الثانية، فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرُجم، فكان الناس فيه فريقين، فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم[٧٧]. وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى فردها، فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لِم تردنى، لعلك تريد أن تردنى كما رددت ما عزا، فوالله إنى لحبلى. فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهبى حتى تضعى، فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت هذا قد ولدته، قال اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلما فطمته أتت بالصبي وفى يده كسرة خبز، فقالت يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحُفِر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال: "مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفر له"، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.[٧٨] وأما القصاص وحد القذف فلا بد من تحليل صاحبه المستحق

[77] حديث اعتراف ما عز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف اربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الخصيب

[78] حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تابت توبة الحديث أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله

فيه، وإن كان المتناوَل مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس، كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يُفتِش عنه، لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب فى مال الصبى يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به، إذ يستوِى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يُحاسَب فى القيامة، وليناقش قبل أن يُناقَش. فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حِسابَه. فإن حصَّل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا، وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم. وهذه التوبة تشق على الظَلَمَة وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم. ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يُكْثِر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم. ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حُمِّل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم، وهذا يُوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك مما لا يُعرف، وربما يكون الأجل قريبا. فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته، أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا، وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار. وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم فى الغيبة، فيطلب كل من تعرض له بلسان، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يُتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عِوضا فى القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته. وعليه أن يُعرِّفه قدر جنايته وتعرضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفى، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته، أو يحمله من سيئاته، فإن كان فى جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب، وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه، فإن هذا حقه فعليه أن يتلطف به ويسعى فى مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقه عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتوددة وتلطفه كقدر سعيه فى أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عِوضا فى القيامة بحكم الله به عليه. كمن أتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين. وفى المتفق عليه من الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن اعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه، فقال أنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ قال لا فقتله فكمل به مائة. ثم

سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة، إنطلق إلى الأرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله، وقالت ملائكة العذاب أنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك فى صورة آدمي فجعلوه حكما بينهم، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجوده أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة"[٧٩]. فبهذا تعرف أنه لاخلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة. فلا بد للتائب من تكثير الحسنات. هذا حكم القصد المتعلق بالماضى وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه فى الحال، ولا يُتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصى أكل الحرام، فكيف يكون تائبا مع الإصرار عليه. ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات. وقد قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يُبتل بها، وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يُحرَّم عليه، حتى يمكنه الاستقامه. وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة. وقد قال بعض الناس أن هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون تصح، ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح أن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا بلا وجوده كعدمه، فما أعظم خطأك، فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته، ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة أو الفوز، فهذا أيضا خطأ، بل النجاة والفوز بترك الجميع. هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله. فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم، وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة، ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية، فإن العِلة شاملة لهما، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية، سواء عصى بالسرقة أو الزنا، فكيف يتوجع على البعض دون البعض. فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث أنها معصية، فلا يُتصور أن يكون على بعض المعاصى دون البعض. ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر، فإن استحال ذلك من حيث أن المعصية فى الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف، فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة. فإذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تُنال إلا بالندم، ولا يُتصور الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول أن العقد لا يصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك، وتحقيق

[79] حديث أبى سعيد الخدري المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن اعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبى سعيد وفى رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها وفى رواية فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغُفر له

هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق. فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها، ولا يُتصور الندم إلا لكونها معصية، وذلك يعم جميع المعاصي. وهو كلام مفهوم واقع به ينكشف الغطاء، فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن، لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده فى الشرع فقد كثر التائبون فى الأعصار الخاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة. الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض، وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يُترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضا ممكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر، لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى، فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى. الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ،كالذى يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضا ممكن، ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصية ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية... إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، وإذا فُهم هذا فُهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الندم توبة"، ولم يشترط الندم على كل ذنب، وقال: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له"، ولم يقل التائب من الذنوب كلها. وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل أن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى. نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه، إما فى شدة المعصية وإما فى غلبة الشهوة. وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تُصور اختلاف حاله فى الخوف والندم، فيتصور اختلاف حاله فى الترك، فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهي. فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول لا، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفة وثار منه احتراق وتحسر وندم، بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإنى أرجو أن يكون ذلك مُكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته، إذ لا خلاف فى

أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم يطرأ عليه حالة تَهِيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده. فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهى شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله. والحقيقة فى هذا كلة ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين، أحدهما حرقة الندم والآخر شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم، بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة. ولولا هذا لقلنا أن التوبة لا تُقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا. فإن قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب، والآخر بقى في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها، فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى أن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد، وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق، وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان، إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين، وعلى قوة الدين. وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين. فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا، وقول القائل أن هذا أسلم، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب، فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ، وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لأنه فى أمن من خطر الشهوة، والصبى أفضل من البالغ لأنه أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وأن غلب مرات. وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز فى الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. الحالة الثانية أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة، إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين، وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد، قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد كان مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت، وما دمت فى المجاهدة فأنت بعد فى طلب الظفر. ولقد زل فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق، وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود، حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه، فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل فى اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال. فإن قلت فما قولك فى تائبين، أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه، فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك، وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذنبين عندنا على حق، ولكن بالإضافة إلى حالين. وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف

الأحوال. وهذا نقصان بالإضافة الى الهمة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله. وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم، فالطرق إلى الله تعالى كثيرة، وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد، والله اعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية. فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وإنبعاثه لسلوك الطريق، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال، ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان، فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق. بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ما له نظير فى الدنيا كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط، فذلك لا نظير له فى الدنيا. فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة، فالمبتدئ أيضا قد يستضر به، فيكون النسيان أفضل له عند ذلك. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق أنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات، الطبقة الأولى أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يُحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات، التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبه النبوة. فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة **التوبة النصوح**، واسم هذه النفس الساكنة **النفس المطمئنة** التى ترجع إلى ربها راضية مرضية. وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: "سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا"[80] فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملى بمجاهدتها وردها. ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة، وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مُختَطَف يموت قريبا من توبته يُغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة[81]، ومِن مُمهَل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته، وحال هذا أعلى وأفضل، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة، حتى قال بعض العلماء إنما يُكَفِر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة، ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى. واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا يُنكَر عظم أثره لو فُرض، ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق، فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع فى الانكفاف، فإنه لا يؤمَن خروج عِنان الشهوة عن اختياره، فيقدم على المعصية وينقض توبته، بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه المُيسِرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه، فبه تسلم توبته فى الابتداء. الطبقة الثانية تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعترية لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يُبتلى بها

[80] حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله الحديث أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنة

[81] السكون بعد الحدة والنشاط [فترت همته] (المعجم العربي الأساسي)

فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تُعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هى **النفس اللوامة**، إذ تلوم صاحبها على ما تُستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد. وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد، وهؤلاء لهم حُسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى:{الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة}، فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، قال تعالى:{والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم}، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه: "خياركم كل مفتن تواب"[٨٢]. وفى الخبر: "لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة"[٨٣]، أى الحين بعد الحين. فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يُلحق صاحبها بدرجة المصرين، ومن يُؤيِس مثل هذا عن درجة التائبين كالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة، بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون"[٨٤]. وقال تعالى:{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة}، فما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها. هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله، وسأتوب عنه، وأجاهد نفسى فى قهرها، لكنه تُسوِّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم. فهذه النفس هى التى تسمى **النفس المُسوِّلة**، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم:{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا}، فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مُخطِرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يُختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شِقوته وقهرته شهوته فيُخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقة مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه **سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين** فيضعف الرجاء فى حقه، وإذا يُسِرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه **سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين**، فكذلك ارتباط

[82] حديث على خياركم كل مفتن تواب اخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف وفى خبر آخر المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانا ويميل أحيانا حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا أخرجه ابو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعفية وقالوا تقوم بدل تفيء وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس

[83] حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

[84] حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون أخرجه الترمذى واستغفر به والحاكم وصحيح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى

سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب، كارتباط حصول فقه النفس الذي به تُستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس. فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه، فلا يصلح لمُلك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير، **هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب**، ولذلك قال تعالى:{ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}. فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة، كان هذا من علامات الخذلان. قال صلى الله عليه وسلم: "**أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس أنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**"[٨٥]. فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة، وكل نَفَسٍ فهو خاتمة ما قبله، إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع فى المحذور، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر. الطبقة الرابعة أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يُجَدِّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته. فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هى **النفس الأمارة بالسوء** الفرارة من الخير، ويُخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره فى مشيئة الله فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فيُنتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه، كما لا يُستحل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنور فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى، وليت من صام وصلى غُفر له. فالناس كلهم محرومون إلا العالِمون، والعالِمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب، يَعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة، إذ يقول أن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى، ومعصيتى ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار، وإذا قيل له أن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب، فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به، ويقول ما هذا الهوس، السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإنما يُنال ذلك بالكسب، وهكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله. ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا، وأنه قد أخبر إذ قال:{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى}، فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا، وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك، لذلك المقيم والنعيم

[85] حديث أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث، مُتفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة، ولمسلم من حديث أبى هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث، ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر، مُختلف فيه

الدائم، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا، وينسى قوله تعالى:{وفى السماء رزقكم وما توعدون}. فنعوذ بالله من العمى والضلال، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس فى ظلمات الجهل. وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى:{ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا}، أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فارجعنا نسعى، وعند ذلك لا يمكَّن من الانقلاب ويحق عليه العذاب. فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرور إلى سوء المنقلب والمآب.

بيان ما ينبغى أن يبادر إليه التائب

إن جرى عليه ذنب، إما عن قصد وشهوة غالبة، أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة، فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغى أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا. فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة فى محل السيئة. وفيما يتعلق بأسبابها فإما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل تذلل العبد الآبق، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد؛ وكذلك يُضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات. وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى ذنوبى، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار. وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا اتُبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا، أربعة من أعمال القلوب وهى التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له؛ وأربعة من أعمال الجوارح وهى أن تصلى عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوما. وفى بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين[٨٦]، وفى بعض الأخبار تصلى أربع ركعات[٨٧]. وفى الخبر إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية[٨٨]، ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وفى الخبر الصحيح أن رجلا قال لرسول الله

---

[86] أثر أن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطا

[87] حديث التكفير بصلاة أربع ركعات أخرجه ابن مردوية فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة، الحديث، وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة (غصن الشجرة المتدلي حولها) فقام نادما فآتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار الآية وإسناده جيد.

[88] حديث إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر.

صلى الله عليه وسلم أنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى، فقال صلى الله عليه وسلم أو ما صليت معنا صلاة الغداة، قال بلى، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الحسنات يذهبن السيئات"[٨٩]، وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة، إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر. فعلى الأحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات. فإن قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار، وفى الخبر "المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله"[٩٠]. وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وقالت رابعة العدوية "استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير". فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها فى "كتاب الأذكار والدعوات"، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:{وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}، فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا، وبقى الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا. فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: استغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار: نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة، فهذه حسنة فى نفسها، فتصلح لأن تُدفع بها السيئة. وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار، حتى قال صلى الله عليه وسلم: "ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة"، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل: لا بد للعبد فى كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء، فإن عصى قال يا رب استر علي، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب علي، فإذا تاب قال يا رب ارزقنى العصمة، وإذا عمل قال يا رب تقبل منى. وسُئل أيضا عن الاستغفار الذى يُكفر الذنوب فقال: "أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق، ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يُغفر له ويكون عنده مأواه، ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر، وهو الخِلة، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش". وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله، فقال: إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذُكر فى قوله تعالى:{التائبون العابدون}، الآية، وقال الحبيب هو الذى لا يُدخِل فيما يكرهه حبيبه. والمقصود أن للتوبة ثمرتين، إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له، والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا. وللتكفير أيضا درجات، فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له. ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب

[89] حديث أن رجلا قال يا رسول الله أنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس، الحديث، فى نزول أن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم، الحديث.

[90] حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله أخرجه ابن أبى الدنيا فى التوبة ومن طريقة البيهقي فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف

والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلا، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره} صِدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال. بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفه السيئات. فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصى فلا تنفيها. كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد، وتقول أى غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك فى الثياب، ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة. فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا، بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل، فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوَّده الذكر، ولم يستعمله فى الشر، ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى، فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال استغفر الله، ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك، ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله، وإذا تعود الفضول قال لعنه الله، فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير، وهو من جملة معانى قوله تعالى: {أن الله لا يضيع أجر المحسنين}، ومعانى قوله تعالى: {وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما}. فانظر كيف ضاعفها، إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب. فإنقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا فلا جرم أعذبك مرتين، وأرغم أنفك من وجهين، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه. وأما الظالم المغرور فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر، فأسعف الشيطان، وتدلى بحبل غروره، فتمت بينهما المشاركة والموافقة، كما قيل وافق شن طبقه، وافقه فاعتنقه[91]. وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذى ذُمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا، والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مقدمة الحياكة، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس، فإذا عجزت عن الكتابة

[91] وافق شن طبقه: من أمثال العرب يضرب للمتوافقين في الشدة وغيرها (المعجم الوجيز)

فلا أترك الحياكة. ولذلك قالت رابعة العدوية "استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير"، فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب، فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد. فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يُذَم وحمد ما يُحمَد، والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، فإن هذه أمور تثبت بالإضافة، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث، رضاه فى طاعته، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه، وغضبه فى معاصيه فلا تُحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته فى عباده فلا تُحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله تعالى، وزاد وخبأ إجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسما: شاب لا صبوة[٩٢] له نشأ على الخير واجتناب الشر، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعجب ربك من شاب ليست له صبوة"[٩٣]، وهذا عزيز نادر. والقسم الثاني هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين. وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء. فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يُبطَل الشيء إلا بضده، ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. والغفلة رأس الخطايا، قال الله تعالى:{وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الاخرة هم الخاسرون}. فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر. فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار، فإن لهذا الدواء أصلان أحدهما العلم والآخر الصبر، ولا بد من بيانهما. فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة، ولكن يخص كل علة علم مخصوص. فكذلك دواء الإصرار. فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم. فنقول يحتاج المريض إلى التصديق بأمور: الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يُتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانة مما نحن فيه: الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة، وللشقاوة سببا هو المعصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان. الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف. الثالث أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء، ووزانه

[92] صبا إلى الشيئ: حن وتشوق إليه/ تطلع إليه (المعجم العربي الأساسي)

[93] حديث يعجب ربك من شاب ليست له صبوة أخرجه احمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعه

من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى، والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يُلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج.

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء المنفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء، وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والأنقضاء.

أما بعد، فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وهما أيضا وصفإن من أوصاف الله تعالى وإسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا. فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الإيمان، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن. ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يُتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان. والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان، وعن إدراك ما به الإيمان. فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان، ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر. الشطر الأول فى الصبر، وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل:{وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا}، وقال تعالى: {وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا}، وقال تعالى:{ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، وقال تعالى:{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا}، وقال تعالى:{إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}. فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب، إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنه نصف الصبر، قال الله: "تعالى الصوم لي وأنا أجزى به"، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات. ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال تعالى:{واصبروا إن الله مع الصابرين}؛ وعلق النصرة على الصبر، فقال تعالى:{بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}. وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى:{أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}، فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول. وأما الأخبار

فقد قال صلى الله عليه وسلم: "الصبر نصف الإيمان"[٩٤] على ما سيأتي وجه كونه نصفا. وقال صلى الله عليه وسلم: "من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تُفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء، عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه"، ثم قرأ قوله تعالى:{ما عندكم ينفد وما عنده الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم}[٩٥]، الآية. وروى جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال الصبر والسماحة[٩٦]، وقال أيضا الصبر كنز من كنوز الجنة[٩٧]، وسئل مرة ما الإيمان فقال الصبر[٩٨]، وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفه[٩٩]، وقال أيضا صلى صلى الله عليه وسلم أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس[١٠٠]. وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام "تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور". وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال: "أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا. فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء. فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة"[١٠١]. وقال صلى الله عليه وسلم: "في الصبر على ما تكره خير كثير". وقال المسيح عليه السلام: "إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين"[١٠٢]. والأخبار في هذا لا تحصى. وأما الآثار فقد وُجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: "عليك بالصبر، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر." وقال على كرم الله وجهه: "بُني الإيمان على أربع دعائم، اليقين والصبر والجهاد والعدل." وقال أيضا: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له". وكان عمر رضي الله عنه يقول: "نعم العدلان[١٠٣] ونعمت العلاوة[١٠٤] للصابرين"، يعني

---

[94] حديث الصبر نصف الإيمان أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم.

[95] حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطول الآية.

[96] حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسماحة أخرجه الطبراني في مكارم الآخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.

[97] حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده.

[98] حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أخرجه أبو منصور الديملى في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف.

[99] حديث الحج عرفه تقدم في الحج معناه معظم الحج عرفة.

[100] حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لا أصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

[101] حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

[102] حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى.

[103] عِدْل: نصف الحمل يكون على أحد جانبي البعير (المعجم العربي الأساسي)

[104] الزيادة (المعجم العربي الأساسي)

بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير. وأشار به إلى قوله تعالى {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}. وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية {إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب}، بكى وقال: "واعجباه، أعطى وأثنى"، أي هو المُعطي للصبر وهو المُثنى. وقال أبو الدرداء: "ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر" هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه الا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة، فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين. وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور، معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال. فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى. وإسم الإيمان تارة يختص بالمعارف، وتارة يطلق على الكل. وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها، والعمل هو كالثمرة يصدر عنها. ولا يُعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم، فإن الصبر خاصية الأنس، ولا يُتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما في البهائم فلنقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها. وبيانه أن البهائم سُلطت عليها الشهوات وصارت مُسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة، وليس فيها قوة تُصادِم الشهوة وتردها عن مقتضاها، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا. وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يُحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف. وأما الإنسان فإنه خُلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي هو محتاج اليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح على الترتيب، وليس له قوة الصبر البته، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم. ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختُص بصفتين، إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب، وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند، وتارة يقوى ذلك **بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد**. كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر، فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها

باعث الهوى، وليُفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين. فإن ترْك الأفعال المشتهاه عمل يثمره حال يسمى الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخره، فإذا قوى يقينه، أعنى المعرفة التي تسمى إيمانا، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة. فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة، وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها.

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعا. وللمعارف أبواب، وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين، وعلى مقتضى إطلاقين، أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا، فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر. والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين. إذ اليقين يُعرِّفه أن المعصية ضاره والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل، فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فقال: "من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر"، الحديث إلى آخره. الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما. وله بالإضافة الى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة الى ما ينفعه حال الشكر، فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الإيمان نصفإن، نصف صبر ونصف شكر"، وقد يرفع أيضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب، فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر، لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا. فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان. والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان، أحدهما ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها، واما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع، ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما؛ وإن كان في احتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر؛ وإن كان في حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن؛ وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر؛ وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر؛ وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما؛ وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره. فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر، ولذلك لما سئل عليه الصلاة والسلام مرة عن الإيمان قال هو الصبر، لأنه أكثر أعماله وأعزها، كما قال الحج عرفة. وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا، فقال تعالى: {والصابرين في البأساء}، أي المصيبة، {والضراء}، أي الفقر، {وحين البأس}، أي المحاربة، {أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}. فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأي الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أولا فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي فإنها وُضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع، ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: {أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم}، فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الأنعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال، أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويُتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صَبَرَ ظَفَر. والواصلون الى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم الصديقون المقربون: {الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}. فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين، وإياهم ينادي المنادي: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية}. الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيُسْلِم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شِقوتهم فحكَّموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}. وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم}. وهذه الحالة علامتها

اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق، كما قال صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله". وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة، ولكن قال إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته. الحالة الثالثة أن تكون الحرب سجالا بين الجندين، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه. وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم، هذا باعتبار القوة والضعف. ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه، فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئا منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى:{خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا} على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى، والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا، إذ البهيمة لم تُخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خُلق ذلك له. ولذلك قيل "ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام". وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر، إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد، ويسمى ذلك تصبرا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويُخَص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر. ولذلك قال تعالى:{فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى}. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت، وتسلط باعث الدين واستولى، وتيسر الصبر بطول المواظبة أورَث ذلك مقام الرضا، فالرضا أعلى من الصبر،ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير". وقال بعض العارفين "أهل الصبر على ثلاثة مقامات، أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين، وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين، وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين". وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا. واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا، وكمن يُقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهاره الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع. فليكن الشرع محك الصبر، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل اليك أن جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الاحوال

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين، أحدهما هو الذي يوافق هواه والآخر هو الذي لا يوافقه بل يكرهه، وهو محتاج الى الصبر في كل واحد منهما. وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما، فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر. النوع الأول ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، {فإن الإنسان ليطغى أن رآه

استغنى}، حتى قال بعض العارفين "البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها الا صديق". وقال سهل "الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء". ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: "ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر". ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد، فقال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله}، وقال عز وجل: {إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم}، وقال صلى الله عليه وسلم: "الولد مبخلة مجبنة محزنة"، ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: "صدق الله إنما أموالكم واولادكم فتنة، أني لما رأيت إبني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته"، ففي ذلك عبرة لأولى الأبصار. فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يُسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه. وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر، كما سيأتي، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر. النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختيار كالمصائب والنوائب، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته، كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه. فهذه ثلاثة أقسام، القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، وهما ضربان: الضرب الأول الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين "ما من نفس الا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله أنا ربكم الأعلى". ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره، إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعا من إظهاره، فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء. فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال، الأولى قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء، وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه صلى الله عليه وسلم إذ قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى"، وقال تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل، فقال تعالى:{إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات}. الحالة الثانية، حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضا من شدائد الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى:{نِعم أجر العاملين الذين صبروا}، أي صبروا إلى تمام العمل. الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى:{ولا تبطلوا أعمالكم}، وكما قال تعالى:{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله. والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا، وقد جمعهما الله تعالى

في قوله:{إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى}. فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وايتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم، وكل ذلك يحتاج إلى صبر. الضرب الثاني المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى:{وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي}، وقال صلى الله عليه وسلم: "المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه". والمعاصي مقتضى باعث الهوى، وأشد أنواع الصبر الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها. ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس، تعريضا وتصريحا، وأنواع المزح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهرة غيبة وفي باطنه ثناء على النفس، فللنفس فيه شهوتان إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أُمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات، يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك، مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا. ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا يُنجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة. وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد، والا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يُتصور فتور الوسواس عنه. القسم الثاني مالا يرتبط هجومه باختياره، وله اختيار في دفعه. كما لو أوذي بفعل أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا، وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: "ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى". وقال تعالى:{ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون}. وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأُخبر رسول الله فاحمرت وجنتاه ثم قال: "يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر". وقال تعالى:{ودع آذاهم وتوكل على الله}، وقال تعالى:{واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا}، وقال تعالى:{ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك}، الآية، وقال تعالى:{ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور}، أي تصبروا عن المكأفاة، ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى:{وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك". ورأيت في الإنجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام: "لقد قيل لكم من قبل أن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا بالشر، بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر، ومن أخذ رداءك فاعطه إزارك، ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين"، وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا. القسم الثالث ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله

وآخره، كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه، صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة". وإنما فُضلت هذه الرتبة، مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الأنبياء، لأنه بضاعة الصديقين، فإن ذلك شديد على النفس. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا"، فهذا صبر مستنده حسن اليقين. وقال أبو سليمان: "والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله وولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا". وقال صلى الله عليه وسلم: "إنتظار الفرج بالصبر عبادة"، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك". وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه؟ قال سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، قال الله تعالى: جزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي". وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكُني إلى عُواده، أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه، فاذا أبرأتُه أبرأتَه ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي". وقال داود عليه السلام: "يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن أُلبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا". وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته: "ما أنعم الله على عبد نعمة فإنتزعها منه وعوضه منها الصبر، إلا كان ما عوضه منها أفضل مما أنتزع منه، وقرأ: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب". وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته". وقال داود لسليمان عليهما السلام: "يُستدل على تقوى المؤمن بثلاث، حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات". وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: "من إجلال الله ومعرفة حقِّه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك". فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى، فإن قلت فبماذا تُنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار، فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت إختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويُظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويبقى مستمرا على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله أنها قالت: توفى ابن لى وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومَنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت ألا تعجب من جيراننا؟ قال ما لهم؟ قلت أعيروا عارية فلما طُلبت منهم واستُرجعت جزعوا، فقال بئس ما صنعوا، فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع. ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: اللهم بارك لهما في ليلتهما. قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرءوا

القرآن. وروى جابر أنه عليه السلام قال: رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة. وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يُخرجه عن حد الصابرين توجُع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء. ولأن البكاء تَوَجُّع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان الى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: "إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". وكتب ابن ابي نجيح يعزي بعض الخلفاء: "إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أُخذ منه من عظَّم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه". فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب، وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإن الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا، فإن إختلاج الخواطر لا يسكن، وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه، وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى، فهو مغبون. وتحقق أن الشيطان من المنظَرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس الى يوم الدين، إلا أن تصبح وهمومك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين، ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء فى القدح، فإنك أن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان، ولذلك قال تعالى:{ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ"، وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا، ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار. فإذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك، وهي صفة نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو؟ فقال: "هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك". فإذن حقيقة الصبر وكماله، الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل

آخر. وكما أن أقسام الصبر مختلفة، فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج. إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها، واستيفاء ذلك مما يطول. ولكنا نُعرِّف الطريق في بعض الأمثلة فنقول اذا افتُقِر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا، وقد غلبت عليه الشهوة، بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة، فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا، وتضعيف الآخر. فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة... وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين، أحدهما إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة. وفي الأثر أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان، فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي قوَّى باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا، وإن ضعُفَ ضعَّفه. وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين، وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر. والثاني أن يُعَوِّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا، قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها، فيستجريء عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين. فالعلاج الأول يضاهي أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة ،كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال {وإنكم إذا لمن المقربين}؛ والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجريء عليه وتقوى فيه منته. فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد. فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه... فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر، وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر، قال الجنيد رحمه الله: "السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشد"... وقيل الصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه والصبر عنك فمذموم عواقبه، والصبر في سائر الاشياء محمود. هذا آخر ما أردنا شرحه عن علوم الصبر وأسراره.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان، الأول في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه، الثاني في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة، الثالث في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر: **بيان فضيلة الشكر**. اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ولذكر الله أكبر، فقال تعالى:{فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}، وقال تعالى:{ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم}، وقال تعالى:{وسنجزي الشاكرين}، وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين:{لأقعدن لهم صراطك المستقيم}، قيل هو طريق الشكر. ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق، فقال:{ولا تجد أكثرهم شاكرين}. وقال

تعالى:{وقليل من عبادي الشكور}. وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن، فقال تعالى:{لئن شكرتم لأزيدنكم}، واستثنى في خمسة أشياء: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالى:{فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، وقال:{فيكشف ما تدعون اليه إن شاء}، وقال:{يرزق من يشاء بغير حساب} وقال:{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وقال:{ويتوب الله على من يشاء}، وهو خلق من أخلاق الربوبية، إذ قال تعالى:{والله شكور حليم}، وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة، فقال تعالى:{وقالوا الحمد لله الذي صدقناه وعده}، وقال:{وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين}. وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر"[١٠٥]. وروي عن عطاء أنه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبا، أتاني ليلة فدخل معي في فراشي، أو قالت في لحافي، حتى مس جلدي جلده ثم قال: "يا إبنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي"، فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك، فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا، ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي أن في خلق السموات والأرض، الآية[١٠٦]، وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا. وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة، ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا. وروى صلى الله عليه وسلم عنه أنه قال: "يُنادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة، قيل ومن الحمادون؟ قال: الذين يشكرون الله تعالى على كل حال"[١٠٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: "الحمد رداء الرحمن"[١٠٨]. ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: "ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا أو قلبا شاكرا"[١٠٩] فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال. وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان.

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العمل. فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بأنعامه، والعمل هو القيام بما هو

---

[105] حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حيان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف.

[106] حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها اخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجبا، الحديث في بكائه في صلاة الليل أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقة إبن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب وإسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك إبن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجبا، وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث.

[107] حديث ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون الحديث اخرجه الطبراني وابو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ اول من يدعى الى الجنة الحمادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور وفي لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء.

[108] حديث الحمد رداء الرحمن لم أجد له أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة الكبر رداؤه الحديث وتقدم في العلم.

[109] حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا الحديث تقدم في النكاح.

مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان. ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعة الإحاطة بحقيقة الشكر، فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه. فالأصل الأول العلم، وهو علم بثلاثة أمور: بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من نعمة، ومُنعِم، ومُنعَم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة. فهذه الأمور لا بد من معرفتها، هذا في حق غير الله تعالى، فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يُعرف أن النعم كلها من الله، وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته. وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس، إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس، ثم إذا عُرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس، وهو التوحيد، ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه. قال موسى عليه السلام في مناجاته "إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك؟ فقال الله عز وجل: من علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا". فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم. الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضا في نفسه شكر على تجرده، كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام...إنما الشكر التام هو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث أنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر الى وجهه على الدوام. فهذا هو الرتبة العليا وأمارته أن لايفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها. ولذلك قال الشبلى رحمه الله "الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة"، وقال الخواص رحمه الله "شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب"، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات، وخلا عن لذة القلب. فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه. فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى. الأصل الثالث العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نِعم الله تعالى بهذه الأعضاء، والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به، فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير، فأعاد صلى الله عليه وسلم وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره، فقال صلى الله عليه وسلم وسلم هذا الذي أردت منك[١١٠]. وكان السلف يتساءلون ونيتهم إستخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا، والمستنطق له به مطيعا، وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر، أو يشكو يسكت، فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل

[110] حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة احمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبدالله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح

شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضي به الضعف إلى الشكوى، أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المُبلِي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح، قال الله تعالى: {إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له}، وقال تعالى: {إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم}. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته. فأما قول من قال أن الشكر هو الإعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب، وقول من قال أن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان.

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعل يخطر ببالك أن الشكر إنما يُفعل في حق مُنعم هو صاحب حظ في الشكر، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم الا بشيء من ذلك. وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين، أحدهما أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجدا. الوجه الثاني أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته، فكيف نشكر نعمة بنعمة؟ ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب كيف أشكرك، وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك، وفي لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك، فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني، وفي خبر آخر: إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا... وكل ما خُلق في الدنيا إنما خُلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى. فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الإستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى...**فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا والا فإنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء، فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟** فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول إعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله. والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بَعُد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم، واذا لم يعلم لم يخف، واذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين. فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه، وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار.

وإذا أنكشفت الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر، كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. ولقد كان المُلك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم. فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر إستعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك، إما بترك الإستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان، أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار، والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق. ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا. وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية، أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار والسكون عند الإستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة. فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفى إلا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى: {وقليل من عبادى الشكور}، وفرح إبليس لعنه الله بقوله: {ولا تجد أكثرهم شاكرين}، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير. فإن قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة فى كل شىء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى، فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى؟ فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يُستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها، يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الإيضاع فى السير، فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير. فنقول أن لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع،وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادى إشراقها، فإنخفضت عن ذروتها أبصارهم، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جدا، فاستعاروا لها اسم القدرة، فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع، ثم الخلق ينقسم

فى الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى أُستعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة، فهى تُوهم منها أمرا محملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف وأصوات المتفاهمين بها، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدر، ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تتم القسمة والاختلافات، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل أنهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى فى النسبة يُوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند طالبى الفهم من الألفاظ واللغات. ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم، وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور. فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم **عبارة الرضا**، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها **عبارة الغضب**. فظهر على من غُضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأُردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال، وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال. فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأردى. فهكذا كانت الأمور فى الأزال **وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث، بل عن إرادة وحكمة، وحكم حق وأمر جزم، استعير له لفظ القضاء**، وقيل أنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض **لفظ القدر**. فكان لفظ القضاء بإزاء الآمر الواحد الكلى، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادى إلى غير نهاية. وقيل أن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل، وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فأُلجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع، وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والأرض، وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نورا على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها. فأدركوا الأمور كلها كما هى عليه، فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكنوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا[111]، فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الإبصار، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم... فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له، وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يُقاد ولكن إلى حد ما، فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى، وإذا دق المجال ولطُف، لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعه السباحة أن يعبر

[111] حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا

بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر. فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو بحال جماهير الخلق، كنسبة المشى على الماء إلى المشى على الأرض، والسباحة يمكن أن تُتعلم فأما المشى على الماء فلا يُكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين. ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام يُقال أنه مشى على الماء، فقال صلى الله عليه وسلم: "لو ازداد يقينا لمشى على الهواء"[١١٢]. فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق، إذ عرَّف أنه ما خلق الجن والأنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين، ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المُنْظَر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى:{قل نزله روح القدس من ربك بالحق}، وقال تعالى:{يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده}، وأحال الإغواء على إبليس، فقال تعالى:{ليضل عن سبيله}. والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه... ولا ينبغى أن تقول هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى، فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذى صرف داعيتك، لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب، إتماما للعدل. فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك، فإنك أيضا من أفعاله. فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك فى التعبير هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت. فلذلك تضيفه إلى نفسك. وعُبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل:{وفى السماء رزقكم وما توعدون}، وعُبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل:{خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما}. وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم، وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين فى العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق، حيث قرأ قوله تعالى:{يتنزل الأمر بينهن}، فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى، وفى لفظ آخر، لقلتم أنه كافر. ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار، وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مقاصد الشكر، فنقول إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملا في إتمام حكمة الله تعالى فأشْكَر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه، وأقربهم إلى الله الملائكة، ولهم أيضا ترتيب،{وما منهم إلا وله مقام معلوم}، وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام برره، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلي درجتهم درجة الأنبياء، فإنهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين.

---

[112] حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء، **هذا حديث منكر لا يُعرف هكذا**. والمعروف رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر، فإنطلقوا يطلبونه فلما انتهو إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء. وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل: لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال.

الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم، فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}، فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب.

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر، فإنه يسمى نعمة. ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض. وقد يكون إسم النعمة للشئ صدقا، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها، إما بواسطة واحدة أو بوسائط، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق، لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية. والأسباب المعينة واللذات المسماه نعمة نشرحها بتقسيمات. القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا، كالعلم وحسن الخلق، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا، كالجهل وسوء الخلق؛ وإلى ما ينفع فى الحال المضر فى المآل، كالتلذذ باتباع الشهوة، وإلى ما يضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل، كقمع الشهوات ومخالفة النفس. فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا، كالعلم وحسن الخلق، والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما. والنافع فى الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة، ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه، والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال، ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة. قسمة ثانية اعلم أن كل الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب. ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص، كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضرور نفعه. وهذه أمور تختلف بالأشخاص، فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذه التوفيق نعمة فى حقه، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه. قسمة ثالثة اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره. فالاول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التى لا انقضاء لها، فإنها لا تُطلب ليُتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تُطلب لذاتها. الثاني ما يُقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته، كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضى بها فكانت هى والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال اليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها، حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة. الثالث ما يقصد لذاته ولغيره، كالصحة والسلامة، فإنها تُقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليُتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا. فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث أنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان، فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمر ليس يمكنه

أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر[113] فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة. قسمة رابعة اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذى تُدرك راحته فى الحال، والنافع هو الذى يفيد فى المآل، والجميل هو الذى يُستحسن فى سائر الأحوال. والشرور أيضا تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم. وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة، إما فى الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وإما فى الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا، فيدرك ألم النقص، فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم. ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة. الضرب الثاني المقيد وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن، ورب نافع قبيح كالحمق، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل استراح من لا عقل له، فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح فى الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فإنه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة. فإنهم مُنعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم. ولا يُتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم أن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها، وهى طاعة الله عز وجل. فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان. أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم، لأنها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا. ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها. وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال. والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تُشكر فى بعضها، فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تُعمى عينيه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة. ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة. فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم. كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال

[113] طين لزج متماسك (المعجم العربي الأساسي)

لا، فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا، فقال أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا؟ فقال لا، فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشر آلاف درهم؟ فقال لا، فقال أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا. ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له عظنى. فقال لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه؟ قال نعم. فقال لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال نعم. قال: **فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء**. فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها. وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة. فنقول ما من عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس، وربما لا يشاركه فيها أحد. وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور فى العقل والخُلُق والعلم. أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقَل من يسأل الله العقل، وأن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه. وأما الخُلُق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى، إذ حَسَّن خُلُقه وابتلي غيره بالخلق السيء. وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به، ولو كُشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة! فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه، فأظهر الجميل وستر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد. فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا وإما فى بعض الأمور. فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أمورا لو سُلِب ذلك منه وأُعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا، وحيا لا جمادا، وإنسانا لا بهيمة، وذكرا لا أنثى، وصحيحا لا مريضا، وسليما لا معيبا. فإن كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا، فإن هذا الأحوال لو بُدلت بأضدادها لم يرض بها. بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخَلق، أو لا يبدله بما خص به الأكثر. فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره، وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه، إما على الجملة وإما فى أمر خاص، فإذن لله عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه. وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون مَن دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله لا يسوى دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة، فينظر أبدا فى الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلِم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خيرا منه، وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر. وإذا قال صلى الله عليه وسلم: "من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا،

ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه وفى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا"[١١٤]. ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث... فإذن إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة. فإن قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟ فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة، وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفيه إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التى تقام فيها الحدود، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل فى صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات، ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا، أما من عصى الله تعالى فليتدارك وأما من أطاع فليزد فى طاعته فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات، وأما العاصى فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر ما بقى له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهى أهل القبور العود لأجله، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى فى بقية العمر، بل فى الإمهال فى كل نفس من الأنفاس. وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خُلق العمر لأجله، وهو التزود من الدنيا للآخرة. فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر. ومما ينبغى أن تُعالَج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تُشكر زالت ولم تعد.

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شىء واحد

لعلك تقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى فى كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا، فما معنى الصبر إذن؟ وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة، فكيف يُتصور الشكر على البلاء؟ وكيف يُشكر على ما يُصبر عليه؟ والصبر على البلاء يستدعى ألما، والشكر يستدعى فرحا، وهما يتضادان. وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان، ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء. ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه، إما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى، وإما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخُلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه، كالمال الذى يُصلح الدين من وجه ويفسده من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد، أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى، إما مدة وإما أبدا، وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق، وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر

[114] حديث من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا الحديث أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف لا غناء بعده ولا فقر معه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا وهو أشبه بالصواب

والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التى لا تكون بلاء فى الدين بل فى الدنيا. فالشكر المطلق للنعمة المطلقة، وأما البلاء المطلق فى الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره، وكذا حق العاصي. نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليها، والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية. بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه. فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته. فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلذلك يُتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر. فإن الغِنَى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان، حتى يُقصد بسبب ماله فيُقتل وتُقتل أولاده. والصحة أيضا كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه. فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى. قال الله تعالى: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض}، وقال تعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى}، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما يحمى أحدكم مريضه"[115]، وكذلك الزوجة والولد والقريب. وكل ما ذكرناه فى الأقسام الستة عشر من النعم، سوى الإيمان وحسن الخلق، فإنها يُتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس، فتكون أضدادها إذن نعما فى حقهم. إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة، فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد فى بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة، مثاله جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه. وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام. وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة. ومنها إبهام الله تعالى أمر القيامة، وإبهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر. فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد. فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل، فكيف فى العلم. وحيث قلنا أن لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد فى حق كل أحد، ولا يُستثنى عنه بالظن إلا الآلام التى يخلقها فى بعض الناس، وهى أيضا قد تكون نعمة فى حق المتألم بها، وألم الكفار فى النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد، ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا فى آلام أهل النار. أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليه من حيث أنها عامة مبذولة، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها. فإذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة، إما على جميع عباده أو على بعضهم. فإذن فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلَى أو على غير المبتلى. فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعا. فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان، إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح، فاعلم أن الشيء الوحيد قد يُغتم به من وجه، ويُفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح.

[115] حديث أن الله ليحمى عبده من الدنيا الحديث أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم.

وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها؛ أحدها أن كل مصيبة ومرض فيُتصور أن يكون أكبر منها، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه، ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال، اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: "ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم، إذ لم يكن فى دينى، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه". وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال: "لا تتهم الله فى شىء قضاه عليك"[١١٦]، ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك، فسئل فقال: "عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضي وكان خيرا له وأن قضى له بالضراء رضي وكان خيرا له"[١١٧]. الوجه الثاني أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور. ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها، حتى تصير كالجنة فى حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته. وإذا كثرت عليه المصائب أنزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها، وصارت سجنا عليه، وكانت نجاته منها غاية اللذة، كالخلاص من السجن. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".[١١٨] والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى. وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى، بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق. فإذن فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضرورى. فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل. والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم، وهم خارجون عنها من باب اللحد. فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة. فمن عرف هذا تُصور منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يُتصور منه الشكر، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يُتصور منه الشكر على المصيبة. والأخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يصب منه"[١١٩]. وقال صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو لده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا"، وقال عليه السلام: "ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى إنا لله وأنه إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله ذلك به"، وقال صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود فى دارى والنظر إلى وجهى". وعن على كرم الله وجهه قال: "أيما رجل حبسه السلطان

---

[116] حديث قال له رجل أوصنى قال لا تتهم الله فى شىء قضاه عليك رواه أحمد والطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى أوله وفى إسناده ابن لهيعة.

[117] حديث نظر إلى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحكه عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث سعد بن أبى وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر الحديث.

[118] حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم.

[119] حديث من يرد الله به خير يصب منه رواه البخارى من حديث أبى هريرة.

ظلما فمات فهو شهيد، وأن ضربه فمات فهو شهيد"، وقال عليه السلام: "من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك". وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا، فإذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف، وإن دعاه ثانيا فقال يا رب قال الله تعالى: لبيك عبدى وسعديك لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك، أو دفعت عنك ما هو خير، وادخرت لك عندى ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب"[120]. فذلك قوله تعالى:{إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: شكا نبى من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي[121] عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا. فأوحى الله تعالى إليه "إن العباد والبلاء لي وكل يسبح بحمدى، فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته". وروي أنه لما نزل قوله تعالى:{من يعمل سوءا يجز به} قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست يصيبك الأذى؟ ألست تحزن؟ فهذا مما تجزون به"[122]، يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك. وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج، ثم قرأ قوله تعالى:{فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء}"[123]، يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا، أى بما أُعطوا من الخير، أخذناهم بغتة. وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى

[120] حديث أنس إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشيعن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشى ضعيفان ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشى ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

[121] يمنع (المعجم العربي الأساسي)

[122] حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجز به قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض الحديث من رواية من لم يسم عن أبى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له إسناد صحيح وقال الدارقطنى وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء يثبت.

[123] حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث رواه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن.

الدنيا"[١٢٤]. وقال علي كرم الله وجهه: "ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن؟ قالوا بلى. فقرأ عليهم {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}. فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا، وإن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة". وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهريقت فى سبيل الله، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلة الرحم"[١٢٥]. ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بنى لأن تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك، فقال يا أبت لأن يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نُعي إليه ابنة له فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقة الله تعالى. ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى:{واستعينوا بالصبر والصلاة}. وقال بعض العلماء إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وماله ذنب. وقال الفضيل: إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير. وقال أبو مسعود البلخى: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل. وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بنى إن الذهب يُجَرَب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء، فإذا أحب الله قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط. وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام: **إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى وأشك إلي، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك**". نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة.

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[١٢٦]، وكان يقول هو والأنبياء

---

[124] حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أخرجه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى.

[125] حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث على بن أبى طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكى منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة ما قطر فى الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكى المنكر الحديث.

[126] حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث بشر بن أبى أرطاة بلفظ أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبى داود من حديث عائشة اللهم أنى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة.

عليهم السلام "ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة"[١٢٧]، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها. وقال على كرم الله وجهه: اللهم إنى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم: "لقد سألت البلاء فاسأله العافية"[١٢٨]. وروى الصديق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين"[١٢٩]، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن. وقال الحسن رحمه الله: الخير الذى لا شر فيه العافية مع الشكر، فكم من مُنعَم عليه غير شاكر. وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر. وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين، أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما فى الدنيا أو فى الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب. فينبغى أن نسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر. وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر، وقال آخرون الشكر أفضل، وقال آخرون هما سيان، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال. واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول فى بيان ذلك مقامان، المقام الأول البيان على سبيل التساهل، وهو أن يُنظر إلى ظاهر الأمر ولا يُطلب التفتيش بحقيقته، وهو البيان الذى ينبغى أن يُخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة. وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم. فنقول هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضى تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم: "من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر". وفي الخبر "يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول نعم يا رب، فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليك فشكرت وابتليتك فصبرت، لأضعفن لك الأجر

---

[127] حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا فى الدنيا الحديث ولأبى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتنا الحديث.

[128] حديث قال على رضى الله عنه اللهم إنى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسله العافية رواه الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما قال سمع رجلا وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنا فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فإن كان بلاء فصبرنى فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح.

[129] حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد جيد وقد تقدم.

عليه، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين"[١٣٠]. وقد قال الله تعالى:{إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}. وأما قوله "الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر" فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر، إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر، فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فُهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر. وهو كقوله صلى الله عليه وسلم: "الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل"[١٣١]، وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الصبر نصف الإيمان" لا يدل على أن الشكر مثله، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم: "الصوم نصف الصبر"، فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال الإيمان هو العلم والعمل، فالعمل هو نصف الإيمان، فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم. وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: "آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه"[١٣٢]. وفي الخبر: "أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام"[١٣٣]. وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر، لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى، فهذا هو المقام الذي يُقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم. المقام الثاني هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح، فنقول فيه كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يُكشف عن حقيقة كل واحد منهما. وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تُفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان. والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة، فلا يتبين لحكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال. فنقول قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة: علوم وأحوال وأعمال، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهى الثلاثة إذا وُزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال تراد للأحوال، والأحوال تراد للعلوم، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال، لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه. وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى

---

[130] حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجد له أصلا.

[131] حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشطر الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات. [التبعل: حسن طاعة الزوج (المعجم الوجيز)]

[132] حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف وفي خبر آخر يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا حديث يدخل سليمان عبد الأنبياء بأربعين خريفا تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصوزر الديلمى في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر.

[133] حديث أبواب الجنة كلها مصراعأن إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجد له أصلا ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوأن ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام

بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف. وأفضل المعارف علوم المكاشفة، وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد المعاملة ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر. فنقول فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله. فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهى الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة تُنال بها، بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة، وإنما يشعر بها في الآخرة. وأما الأحوال فنعنى بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طَهُر وصفا اتضح له حقيقة الحق. فالأفضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل، فإن قلت فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات، بقوله: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا}، وقال تعالى: {ويأخذ الصدقات}، فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر، فنقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر، بل يُقابَل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل. ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان، هذا أن اعتبرنا في البلاء والمصائب. وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر، لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين. إذ باعث الدين إنما خُلق لهذه الحكمة، وهو أن يُصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟ فإذن مجارى الصبر ثلاثة: الطاعة والمعصية والبلاء، وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال. أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يُظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي. وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين، أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة. وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح. وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لاتصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها. وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة، والغني اتبع نهمته

وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا. إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الإقتصار في التنعم على المباح، والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها. فإن الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص. لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة. فإذن الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة. فإذا أردت التحقيق ففصل، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء، وهو وراء الرضا إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به. وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والإعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والإعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، إذ قال عليه السلام: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"، وقلة الإعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر. وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام. فإذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق والله اعلم.

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع الجبار، الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جل جلاله وتقدست أسماؤه. والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته"[١٣٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"[١٣٥]. فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات، ونحن نستقضي بيانهما من الكتاب في شطرين، شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب في الكبر وفيه بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وآفته، وبيان من يُتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين، وما فيه يظهر الكبر، وبيان علاج الكبر، وبيان امتحان النفس في خُلِق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر: قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى:{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}، وقال عز وجل:{كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}، وقال تعالى:{واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد}، وقال تعالى:{إنه لا يحب المستكبرين}، وقال تعالى:{لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا}، وقال تعالى:{إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}. وذم الكبر في القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في

[134] حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته أخرجه الحاكم في المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر

[135] حديث ثلاث مهلكات الحديث أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا

قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[١٣٦]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي"[١٣٧]. وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال هذا، يعني عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه"[١٣٨]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب"[١٣٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون، قال: المتكبرون"[١٤٠]. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قال محمد بن الحسين بن علي ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك أو كثر.

بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة". وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء[١٤١]. وقال صلى الله عليه وسلم: "من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان "[١٤٢]. وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى اعلم.

---

[136] حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود

[137] حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قذفته في النار وقال مسلم عذبته وقال رداؤه وإزاره بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا

[138] حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح

[139] حديث لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين الحديث أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

[140] حديث أن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ إلى ومني وفيه أنقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث

[141] حديث ابن عمر لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى

[142] حديث من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضبان أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر.

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما زاد عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"، وقال صلى الله عليه وسلم: "طوبى لمن تواضع في غير مسكنة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة". وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: "إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي". وقال المسيح عليه السلام: "طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة". وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع[١٤٣] له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات: التواضع. وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تُعلِمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورُفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال ما أحسن ما قلت، فقال: يا أمير المؤمنين إن امرأ آتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده، فعف في جماله وواسى من ماله وتوضع في حسبه كُتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. ويقال أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يُفلح أبدا. ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله، وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل. وقال أبو سليمان لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه؛ وقال أبو يزيد ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له فمتى يكون متواضعا؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه. وقال عروة بن الورد

[143] بساط من الجلد، كثيرا ما يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (المعجم الوجيز)

التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم. ويقال: التواضع في الخَلق كلهم حسن وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل. وقال أبو علي الجوزجاي: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل. وعن عمرو بن شيبة قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر إليه وأتأمله، فقال لي مالك تنظر إلي؟ فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة، فقال له أنا ذلك الرجل. فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة، ثم آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خُلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. وإسم الكبر بالخُلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخُلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كِبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المُتكبَّر عليه. فإن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به، وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تُصور أن يكون معجبا، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا. ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه. ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره. فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك. فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خُلق الكبر، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بك من نفخة الكبرياء". وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين، وهو الاستعظام، كبر وانتفخ وتعزز. فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضا عزة وتعظما. ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى:{إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه}، قال عظمة لم

يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره، حقر مَن دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق، وارتفع عليه في المحافل، وانتظر أن يبدأه بالسلام، واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه، وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رُد عليه شيء من قوله غضب، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم واستحقارا.

والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنما مشهورة. فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخَلْق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق. وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"، وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين، وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد، وفيه العز ولا يقدر أن يدوم على الصدق، وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب، وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ، وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد، وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف، وفيه العز ولا يقدر على قبول النصح، وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم، وفيه العز ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه، فمِن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: {والملائكة باسطو أيديهم} إلى قوله {وكنتم عن آياته تستكبرون}، ثم قال: {ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين}، ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال: {ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا}، وقال تعالى: {فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون}، وقال عز وجل: {يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين}، وقال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، وقال تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق}، قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت، وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام: "إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه، فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة". ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر

والكشف عن حقيقته وقال: "من سفه الحق وغمص الناس"[١٤٤]. هكذا بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه. اعلم أن المُتكبَّر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خُلِق الإنسان ظلوما جهولا، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق. فإذن التكبر باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام: الأول التكبر على الله، وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان، مثل ما كان من نمرود فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فإنه، لتكبره، قال أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبدا لله، ولذلك قال تعالى:{إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}، وقال تعالى:{لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون}، وقال تعالى:{وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا}.

القسم الثاني، التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله قولهم:{أنؤمن لبشرين مثلنا}، وقولهم:{إن أنتم إلا بشر مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم أنكم إذا لخاسرون. وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا. وقالوا لولا أنزل عليه ملك} وقال فرعون فيما أخبر الله عنه:{أو جاء معه الملائكة مقترنين}، وقال الله تعالى:{واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق}، فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا. قال وهب: قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك، قال حتى أشاور هامان، فشاور هامان، فقال هامان بينما أنت رب يُعبد إذ صرت عبد تَعبد، فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم:{لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم}، قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا، فقال تعالى:{أهم يقسمون رحمة ربك}، وقال الله تعالى:{ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا}، أي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء، وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم، فإنزل الله تعالى:{ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي} إلى قوله:{ما عليك من حسابهم}، وقال تعالى:{واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا}. ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذا لم يروا الذين ازدروهم:{فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار}، قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف، قال الله تعالى مخبرا عنهم:{فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به}، وقال: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا}. وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

---

[144] حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس أخرجه من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذي فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة.

القسم الثالث التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم. وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين، أحدهما أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر، فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله. وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: "العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته" أي أنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي. وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه. فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة الكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه.

الوجه الثاني الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى فقال:{وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون}. فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخُلق. وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى:{وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم}. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: إنا لله وأنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف فقُتِل، فقام آخر فقال يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فقَتَل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبرا. وقال ابن مسعود كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك. وإنما ضرب الله إبليس مثلا لهذا، وما حكاه من أحواله، إلا ليُعتبر به، فإنه قال أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب، لأنه قال {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له، فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد. فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة. ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله إني امرؤ قد حُبب إلي من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس"، وقوله وغمص الناس أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه، وهذه الآفة الأولى وسفه الحق هو رده وهي الآفة الثانية. فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة

أسباب. الأول **العلم** وما أسرع الكبر إلى العلماء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "آفة العلم الخيلاء"[١٤٥] فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة، رأى ذلك صنيعة عنده ويدا عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكرا له على صنيعه. بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكان تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم. هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يُسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما. بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم. وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ويقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علما ازداد وجعا. وهو كما قال، فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا، فاعلم أن لذلك سببين، أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}. فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها، امتلأ بها كبرا ونفاقا، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما. بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالبا. السبب الثاني، أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم، أي علم، كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة. فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرا، والمتواضع تواضعا. وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا، وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما، علم أن الحجة قد تأكدت عليه، فيزداد خوفا وإشفاقا وذلا وتواضعا. فالعلم من أعظم ما يُتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}، وقال عز وجل: {ولو كنت فظا غليظ القلب لأنفضوا من حولك}، ووصف أولياءه فقال: {أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين}. وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه: "يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ

[145] حديث آفة العلم الخيلاء قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسن بن الحميد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

منا ومن أعلم منا. ثم التفت إلى أصحابه وقال: أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار"[١٤٦]. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك أستأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال أنه الذبح، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إماما غيري أو لتصلن وحدانا، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وُجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن يُفارق، بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله. الثاني **العمل والعبادة** وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا. أما في الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق. وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا، وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم"[١٤٧]، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره، قال صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم". وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم. فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل، وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال. كما روي أن رجلا في بني إسرائيل كان يقال له خليع بني إسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله، فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله يرحمني، فجلس إليه فقال العابد أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إلي، فأنف منه وقال له قم عني. فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد، وفي رواية أخرى فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع. وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلا في بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه أيها المتألي بل أنت لا يغفر الله لك. وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتا عند الله، ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذلك لعِظم قدر نفسه عنده. وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله. وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه، وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء

[146] حديث العباس يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق

[147] حديث إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

صلوات الله عليهم، فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة. ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي، وأعظم شيء يُبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وآمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات، الدرجة الأولى أن يكون الكبر مستقرا في قلبه، يرى نفسه خيرا من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية. الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يُضم، إنما الورع في القلوب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "التقوى هاهنا وأشار إلى صدره"، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا. ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله، ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}. وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبه الغير في العلم والعمل، أما العابد فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده، فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني على نفسه، ويقول إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه، وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذي سمعت من الحديث، كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه، وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يُغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيُظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يُرى أنه أعظم منه، فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل. وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه. فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر"، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أنه من أهل النار. وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظيم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: "إن لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا، فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا". ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا، فهذا هو التكبر بالعلم والعمل. الثالث **التكبر بالحسب والنسب**، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من

مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي يا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك، فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه، وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا. إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه، كما روي عن أبي ذر أنه قال قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل[١٤٨]، فقال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي. فإنظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء، وأن ذلك خطأ وجهل، وأنظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل. ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم"[١٤٩]. الرابع **التفاخر بالجمال**، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس. ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها. وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت. الخامس **الكبر بالمال**، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}، حتى أجابه فقال:{إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا}، وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله:{يا ليتني لم أشرك بربي أحدا}. ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره:{فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم}. السادس **الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف**. السابع **التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين**، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين. وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يُعتقد كمالا وإن لم يكن في نفسه كمالا، أمكن أن يُتكبر به. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر

---

[148] حديث أبي ذر قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء الحديث أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى.

[149] حديث أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك الحديث أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط.

بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خُلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبرا. ويخص إسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر، كما سيأتي معناه. فإنه إذا أُعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر. وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكَبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما. أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء. فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب والحقد والحسد والرياء. أما العجب فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال. وأما الحقد فإنه يحمل على التكبر من غير عجب، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه، فأورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وأن كان عنده مستحقا للتواضع. فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له، ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته، وعلى الأنفة من قبول نصحه، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله، وإن ظلمه فلا يعتذر إليه، ولا يسأله عما هو جاهل به. وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود، وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم. فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه، فهو يُعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه. وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس أنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطريق، ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير، وهو عالم باطنا بأنه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين. وكان اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سمي متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى اعلم.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصُعْر[150] في وجهه، ونظره شزرا، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعا أو متكئا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض، فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرم الله وجهه: "من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام". وقال أنس: "لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك". ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، قال أبو الدرداء: "لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشي خلفه". وكان عبدالرحمن بن عوف لا يُعرف من عبيده إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم، وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم. ومنها أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء. ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر. ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه، روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها. فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا. فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين، فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعا. ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك. وقال علي كرم الله وجهه: "لا يُنقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله". وعن الأصبغ بن نباتة قال كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم رأيت عليا رضي الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين، فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل. ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "البذاذة من الإيمان"، فقال هارون سألت معنا عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تُشترى له الحلة بألف دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استُخلِف كان يُشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: "ما أجوده لولا لينه"، فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال" إن لي نفسا ذواقة، وإنما لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه مليا

[150] صُعْرٌ: مائل العنق أو الوجه (المعجم العربي الأساسي)

ثم رفع رأسه فقال: "إن أفضل القصد عند الجدة، وإن أفضل العفو عند القدرة". فإن قلت فقد قال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب، وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس، فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس، إذ قال أني امرؤ حبب إلي من الجمال ما ترى؟ فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر. وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع، وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان، وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله خيلاء القلب، يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ليس من الكبر، يعني أن الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر. وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده". وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري، البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي أن يُقتدى به، ومنه ينبغي أن يُتعلم. وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته، كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقم[151] البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يلعقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله، يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دُعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دُعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق، لم يبشم قط من شبع، ولا يمد يده من طمع. قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أخطأ منه حرفا، ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا، ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعا يلتوي ليلته حتى يصبح، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي، وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة

[151] كنس (المعجم الوجيز)

إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أياما يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي. قالت عائشة رضي الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل. فما نُقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله، فلقد كان أعظم خلق الله منصبا في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يَفضَلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه. واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئا ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه، ولا يحسدون أحدا، ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مدامين على حالهم الظاهر، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدما في استباق الخيرات، أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون".

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخَلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سِنخه[١٥٢] وقلع شجرته من مغرسها في القلب؛ الثاني دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره. المقام الأول في استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما. أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة. وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله. أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى: {قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره}، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم، وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من

[152] السنخ: الأصل من كل شئ، مغارز الأسنأن في الفك (المعجم العربي الأساسي)

القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظما، ثم كسا العظم لحما. فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت، إذ لم يُخلق في ابتدائه كاملا، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله {من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره}، ومعنى قوله:{هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه}، كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال:{ثم السبيل يسره}، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وكذلك قال:{من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل وإما شاكرا أو كفورا}، ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا، ونطفة ثانيا، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبَصَّره بعد ما كان فاقدا للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العُري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره، فقال:{أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون}. فانظر إلى نعمة الله كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجودا بعد العدم، وحيا بعد الموت، وناطقا بعد البكم، وبصيرا بعد العمى، وقويا بعد الضعف، وعالما بعد الجهل، ومهديا بعد الضلال، وقادرا بعد العجز، وغنيا بعد الفقر. فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء، وأي قلة أقل من العدم المحض، ثم صار بالله شيئا. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته، فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال:{ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين}، وعرف خسته أولا فقال:{ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة}، ثم ذكر منته عليه فقال: {فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى}، ليدوم وجوده بالتناسل، كما حصل وجوده أولا بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء، ولكن هذه عادة الخسيس، إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى رضي أم سخط، فيجوع كرها، ويعطش كرها، ويمرض كرها، ويموت كرها، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار، فلا يملك قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يُسلب سمعه وبصره، وتفلج أعضاؤه، ويُختلس عقله، ويُختطف روحه، ويُسلب جميع ما يهواه في دنياه. فهذا أوسط أحواله فليتأمله، وأما آخره وموارده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى:{ثم أماته

فأقبره ثم إذا شاء أنشره}، ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه، ويصير رميما رفاتا ويأكل الدود أجزاءه، فيتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه فيصير روثا في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، **ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الأنتان**. وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا، يُعمل منه الكيزان، ويُعمل منه البنيان فيصير مفقودا بعد ما أن موجودا، وصار كان لم يغن بالأمس حصيدا، كما كان في أول أمره أمدا مديدا. وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو تُرك ترابا، لا بل يُحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة، ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة، فيقال له: اقرأ كتابك، فيقول وما هو، فيقال كان قد وكل بك في حياتك، التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير، ونقير وقطمير، وأكل وشرب، وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك، فهلم إلى الحساب واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب. فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب، قبل أن تنشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال:{يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها}. فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى:{ثم إذا شاء أنشره}. فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم، بل ماله وللفرح في لحظة واحدة، فضلا عن البطر والأشر، فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى، ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا. فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو، كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا، وأي عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله، ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به، ولا قوة إلا بالله. وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه، وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره، فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذلا، فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أُمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه. فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضِعة، أُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع. فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال، فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خُلقا، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت... ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في

جميع الأسباب السبعة، الأول **النسب**، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين، أحدهما أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما وَلدوا، فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره. الثاني أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال:{الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين}. فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خُمِّر طينة حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة، فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة، فلا أصل له ولا فصل، وهذه غاية خسة النسب، فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب. السبب الثاني **التكبر بالجمال**، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال. فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه، ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر أنه خُلق من أقذار، وأسكن في أقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن[153] وكلون الأزهار في البوادي فبينما هو كذلك إذ صار هشيما تذروه الرياح. فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها. السبب الثالث **التكبر بالقوة والأيدي**، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سُلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل. ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم. السبب الرابع والخامس **الغنى وكثرة المال**، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم، وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فإن تغير عليه كان أذل الخلق. وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل. كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل، فأف لشرف يسبقك به اليهودي، وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا. فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك. السبب السادس **الكبر بالعلم**، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين، أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم. وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب، فقال عز وجل:{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا}، أراد به علماء اليهود، وقال في بلعم بن باعوراء:{واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فإنسلخ منها حتى بلغ فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث}، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتابا فأخلد إلى

[153] حسنة المظهر سيئة المخبر (المعجم العربي الأساسي)، الدَّمْن: السماد المتلبد (المعجم الوجيز)

شهوات الأرض، أي سكن حبه إليها، فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته. ويكفي العالم هذا الخطر، فأي عالم لم يتبع شهوته، وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه، فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل، فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره. فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه، فهذا الخطر يمنع من التكبر. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق. الأمر الثاني أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا، وقد أحب الله منه أن يتواضع، وقال له "إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي"، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه. فإن قلت فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيُختم له بالإيمان، ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر. فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد، بل إن نظر إلى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني، وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى صغير قال إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إلي كما لم يكن ابتداؤها إلي. فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له. ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكَبر عليه، ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره. السبب السابع **التكبر بالورع والعبادة**، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يُلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال تعالى:{هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}. فإن قال العابد ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن. فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كُلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال، فهذا العابد مع العالم. فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين. فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. وإن كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما

هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك. فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

اعلم أن هذا الخُلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة، والوسط يسمى تواضعا. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وضع شيئا من قدره الذي يستحقه، والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضا غير محمود، بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيرا منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره. فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خُلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخُلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه، إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر، والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب، وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة. ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشطر الثاني من الكتاب في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى:{ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا}، ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عز وجل:{وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا}، فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى:{وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يُعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه، كما يُعجب بعمل هو مصيب

فيه. وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"، وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال: "إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك"[١٥٤]. وقال ابن مسعود الهالك في اثنتين القنوط والعجب، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يُطلب، والمحال لا يُطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى:{فلا تزكوا أنفسكم}، قال ابن جريج معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت، وقال زيد بن أسلم لا تبروها أي لا تعتقدوا أنها بارة، وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال مازال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٥٥]، والنأو هو العجب في اللغة، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما. ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة؟ قال ذلك رجل فيه نخوة، فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص من الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم. وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن. وقد قال تعالى:{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}، والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا.

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى. هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب. والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها. وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره، فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه. فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني، لا سيما

[154] حديث أبي ثعلبة إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه.

[155] حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه أخرجه البخاري من وراية قيس بن أبي حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم.

فيما يتعلق بأصول العقائد، فيهلك به. ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات. ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان، إحداهما أن يكون خائفا على زواله، ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله، فهذا ليس بمعجب. والأخرى أن لا يكون خائفا من زواله، لكن يكون فرحا به من حيث أنه نعمة من الله تعالى عليه، لا من حيث إضافته إلى نفسه، وهذا أيضا ليس بمعجب. وله حالة ثالثة هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة، لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث أنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث أنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذن **العجب** هو استعظام النعمة والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق، سمي هذا **إدلالا بالعمل**، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة. وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه، فيكون معجبا، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه. وقال قتادة في قوله تعالى: {ولا تمنن تستكثر}، أي لا تدل بعملك. والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب، ورُبَ معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء. فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه. لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه والله تعالى اعلم.

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده. وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط. فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه. فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إنما يعجب به من حيث أنه فيه، فهو محِله ومجراه، أو من حيث أنه منه وبسببه وبقدرته وقوته. فإن كان يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره، فهذا جهل لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه! وإن كان يعجب به من حيث أنه هو منه وإليه وباختياره

حصل وبقدرته، ثم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له. فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة. فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت وفقني للعبادة لحبي له، فيقال ومن خلق الحب في قلبك فتقول هو، فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك. فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بغناه، لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضا من فضله وجوده. فإن قلت لا يمكنني أن أجهل أعمالي وأني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثوابا، ولولا أنها عملي لما أنتظرت ثوابا، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب، وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين، أحدهما هو صريح الحق والآخر فيه مسامحة. أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت، وما صليت إذ صليت، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين؛ بل خلقك وخلق أعضاءك، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم، وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علما بالمراد، ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت. ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يُتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك. فإن كان العمل بالقدرة، فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل. فالعبادات خزائن بها يُتوصل إلى السعادات، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم، وهي بيد الله لا محالة. فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده، إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر. فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك، ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله، وأبعد العاصي وأشقاه بعدله. فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك، فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا، فله الشكر والمنة لا لك. والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلا وأفقره فيمن أفاض عليه المال من غير علم، فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل، حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال، إذ يقول الجاهل الفقير يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما. وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن

عقل الرجل محسوب عليه من رزقه. والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا من نفسه، ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك، لامتنع عنه. فإذن ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك، والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول كيف يُحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح، ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها، وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال، فإذن نعمة الله عليها أكبر. فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه به قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يُتصور أن يعجب بعلمه وعمله، إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نُغلب اليوم من قلة[١٥٦] وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: {ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين}. ولهذا قال الله تعالى: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا}. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس: "ما منكم من أحد ينجيه عمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته". ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه! فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سَلْب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سُلِبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول أن من لا يبالي أن يَحرِم من غير جناية، ويعطي من غير وسيلة، لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب. فكم من مؤمن قد ارتد، ومطيع قد فسق وخُتم له بسوء، وهذا لا يبقى معه عجب بحال. والله تعالى اعلم.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يُتكبر كما ذكرناه، وقد يعجب بما لا يُتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله. فما به العجب ثمانية أقسام، الأول أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أول أمره وفي آخره وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني البطش والقوة كما حُكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم من أشد منا قوة، وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه. ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة، والمبادرة إلى

[156] حديث قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنزل الله عز وجل ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل ففروا فيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور.

الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارا لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يُضحك منه، فلا يأمن من أن يُسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا.

الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل. ولذلك قال تعالى:{يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى}، أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال:{وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}، ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة، فقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولما نزل قوله تعالى:{وأنذر عشيرتك الأقربين} ناداهم بطنا بعد بطن، حتى قال يا فاطمة بنت محمد،يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم "اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئا"[157]، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى. فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعال على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأما العجب فجهل محض.

السادس العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا، وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن

---

[157] حديث لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة.

الله، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم، ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة {يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه} الآية، فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى، فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

السابع العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين: {إذ قال أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا}. ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أخشيت أن يعدو إليك فقره"[158]، وذلك للعجب بالغنى. وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له. فكيف يُتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟

الثامن العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالى: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}، وقال تعالى: {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة، وبذلك هلكت الأمم السالفة، إذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه، وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا. وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يُعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا، لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه. فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه؟ وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة، وعقل ثاقب، وجد وتشمر في الطلب، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يُؤمن عليه الغلط في بعض الأمور.

[158] حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فإنقبض منه الحديث رواه أحمد في الزهد.

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه ورطات الغرور، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور.

أما بعد فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة. فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور. والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بداية نفسه كفيلا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا. وإذا عُرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه، وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه. فالموفَق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره، وبنى على الحزم والبصيرة أمره. ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور الجميلة ظواهرها، القبيحة سرائرها، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء.

وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف، الصنف الأول من العلماء، الصنف الثاني من العباد، الصنف الثالث من المتصوفة، الصنف الرابع من أرباب الأموال. المغتر من كل صنف فرق كثيرة، وجهات غرورهم مختلفة. فمنهم من رأى المنكر معروفا، كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى، كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر، كالذي يكون همه في الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف، إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى:{فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور}، وقوله تعالى:{ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني}، الآية، كاف في ذم الغرور. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله"[١٥٩]. وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل. إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل، إلا أن كل جهل ليس بغرور. بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به، وهو الذي يغره. فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يُظن أنها دليل ولا تكون دليلا، سمي الجهل الحاصل به غرورا. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه. فأكثر الناس إذا مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق. فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور، المثال الأول غرور الكفار: فمنهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد والآخرة نسيئة، فهي إذن خير فلا بد من إيثارها، وقالوا اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى:{أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون}. وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان، أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله:{ما عندكم ينفذ وما عند الله باق}، وفي قوله عز وجل:{وما عند الله خير}، وقوله:{والآخرة خير وأبقى}، وقوله:{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}، وقوله:{فلا تغرنكم الحياة الدنيا}. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان[١٦٠]، ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق[١٦١]. وهذا إيمان العامة وهو يُخرج من الغرور. وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كل مغرور فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه، وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء. فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان، أحدهما أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح، والآخر قوله أن النقد خير من النسيئة وهذا محل

---

[159] حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

[160] حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السنن من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه الحديث وهي عند أحمد بإسناد جيد

[161] حديث قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا فيقول نعم فيصدق متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام ابن ثعلبة وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفي آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرأني من حديث ابن عباس في ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى قال نعم الحديث

التلبيس، فليس الأمر كذلك. بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسيئة خير، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه، فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقدا لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كل عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال. فأنسِب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة، فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف، بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد. وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة. فإذن قد غلط في قوله النقد خير من النسيئة، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أُطلق وأُريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصوص معناه. فإن من قال النقد خير من النسيئة أراد به خيرا من نسيئة هي مثله وأن لم يصرح به. وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو أن اليقين خير من الشك، إذا الآخرة شك. وهذا القياس أكثر فسادا من الأول لأن كلا أصليه باطل، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك، والمتفقه في جهاده على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك. ولكن التاجر يقول إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضرري وإن اتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا، وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت، فكذلك من شك في الآخرة، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم فأحسب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقا فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين: "إن كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت"، وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور. وأما الأصل الثاني من كلامه وهو أن الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه مدركان أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مُدرَك يقين العوام وأكثر الخواص. ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني، فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء. وهذا القدر من الإيمان كاف لجمله الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به. وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء ولا تظنن أن معرفة النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلد فقط، وهيهات فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح، والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كُشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت

المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد. فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يُدفع إما بيقين تقليدي وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن، والمؤمنين بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من المغرورين، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها. ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز، قال تعالى:{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}، وقال تعالى:{إن رحمت الله قريب من المحسنين}، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"، وقال تعالى:{والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}. فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضا مغرورون، أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها، المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا، دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا. ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم أنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال:{وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا}. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول لأوتين مالا وولدا فقال الله تعالى ردا عليه:{أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا}، وروي عن خباب بن الأرت أنه قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت إني آخذه في الآخرة، فقال لي إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه، فأنزل الله تعالى قوله:{أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا}، وقال الله تعالى: {ولئن أذقناه رحمة منا من بعض ضراء مسته ليقولون هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى}. وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى:{ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول}، فقال تعالى جوابا لقولهم:{حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير}، ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، ويقولون لو كان خيرا ما سبقونا إليه... وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله، فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال:{فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن}، فأجاب الله عن ذلك: كلا، أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء، نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت. فبين أن ذلك غرور، قال الحسن: كذبهما جميعا بقوله كلا، يقول ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني، ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيا كان أو فقيرا، والمهان من أهنته بمعصيتي غنيا كان أو فقيرا. وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان، إما بالبصيرة أو بالتقليد، أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مُبعِد عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقرِبا إلى الله، وقد قال تعالى:{أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون}، وقال تعالى:{سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، وقال تعالى:{فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}. وفي تفسير قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون أنهم

كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم، وقال تعالى:{إنما نملي لهم ليزدادوا إثما}، وقال تعالى:{ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار}، إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور. فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا، فقال تعالى:{هل تحس منهم من أحد}، الآية، وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال:{فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}، وقال تعالى:{ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون}، وقال عز وجل:{ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}، وقال تعالى:{إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}. فإذن من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه، وهو التصديق بدلالته على الكرامة، وهذا هو حد الغرور. المثال الثاني غرور العصاة من المؤمنين بقولهم إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة، ورحمته شاملة، وكرمه عميم؛ وأين معاصي العباد في بحار رحمته، وإنا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الإيمان. وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الأباء وعلو رتبتهم. فهذا أيضا اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي. فإن قلت فأين الغلط في قول العصاة والفجار أن الله كريم وأنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا. فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب، فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، وهذا هو التمني على الله تعالى، غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال:{إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله}، يعني أن الرجاء بهم أليق، وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى:{جزاء بما كانوا يعملون}، وقال تعالى:{وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}. قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: "هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئا طلبه، ومن خاف شيئا هرب منه". فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يعمل صالحا، أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي مترددا بين الخوف والرجاء، يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت، ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي، فهو كيس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد حين، وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم:{ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون}، أي علمنا أنه لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا، فقد علمنا الآن صدقك في قولك: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى} {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير}، أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه {توفى كل نفس ما كسبت وأن كل نفس بما كسبت رهينة} فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم {قالوا لو كنا نسمع أو نعقل

ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير}. فإن قلت فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود، فاعلم أنه محمود في موضعين، أحدهما في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب، قال الله تعالى:{قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا أنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم}، أمرهم بالإنابة، وقال تعالى:{وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}، فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور. كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك، فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره، أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها، فهو مغرور. الثاني أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيُرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى:{قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} إلى قوله {أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون}. فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر. فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة. وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول أنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وأنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه، وكيف أغتر به. فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور. فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة، وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة إنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات، وأما الأن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى:{فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا}، ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أي هم علماء، ويأخذون عرض هذا الأدنى أي شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا. وقد قال تعالى:{ولمن خاف مقام ربه جنتان ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد}. والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه. وترى الناس يهذونه هذًّا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون

شعرا من أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا. فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول، **أهل العلم**، والمغترون منهم فرق، ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله، وهم مغرورون فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان، علم معاملة، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة. فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل... وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها، فهو مغرور، إذ قال تعالى:{قد أفلح من زكاها}، ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس... وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات؛ أي أن العلم حجة عليه، إذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله. وقال صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه". فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه، وذلك عين الغرور؛ فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور. وأما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد... فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يُهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا، ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع، ولذلك قال تعالى:{إنما يخشى الله من عباده العلماء}. وقال ابن مسعود:كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا. واستُفتي الحسن عن مسألة فأجاب، فقيل له إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال وهل رأيت فقيها قط، الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا؛ وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله فإن قُبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله. فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين. وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاء والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "أدنى الرياء شرك"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم:

"الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل"، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، ولا يخفى أن ذلك غرور. وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم. ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف، قالوا ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين... وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير. وفرقة أخرى أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبري منها، وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها. وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فإنبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقدم له في المهمات وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص،... فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات، أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه. فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه، الظان أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون، إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه. فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوي في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال

الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح، ولم يُخرِسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح؛ ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين، أحدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم، أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم أدواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين قد يُسلَط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال وقد دهاه الشيطان، وما يشعر إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية، هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى. فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به مُعرِض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل، وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوي وظن أنه علم الدين، وترك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال أنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوَّم دينه، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوي لتعطل الحلال والحرام، فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوِّفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، إذ قال تعالى: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}، والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب، وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى، وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله. ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء، وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ. وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقا كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم. ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها، ثم هم فرقتان ضالة ومحقة، فالضالة هي التي تدعو إلى

غير السنة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم، أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا. وأما الفرقة المحقة فإنما اغترارها من حيث أنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن، أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله. فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة. إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل". وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كانه فقئ في وجهه حب الرمأن حمرة من الغضب فقال: "ألهذا بعثتم، أبهذا أُمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، أنظروا إلى ما أُمرتم به فاعملوا، وما نهيتم عنه فإنتهوا"، فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا، ولِم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله. وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين. وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، ولولا أنه مقرب عند الله لا عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله. فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ، والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كُشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه. وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث أنهم يصادفون في قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها، وذهب عليهم أن القبول للكلام، والكلام للمعرفة، وجريان اللسان والمعرفة للعلم، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة. فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها، ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور. فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم. وفرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب. وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر وبعضهم في المحاريب وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظن أنه إذا تميز هذا القدر عن السوقة والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم

فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له وأمن عقاب الله، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم. وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهِمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري، وغرورهم من وجوه منها أنهم كحملة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم، ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به. وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ، والحفظ عن السماع، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين، وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أن تُصغي لتسمع فتحفظ، وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا، ولو غير غيرك منه حرفا أو أخطأ علمت خطأه. ولحفظك طريقان أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال، والثاني أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك، فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف. فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها، لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه، بل سمعت شيئا يخالف ما فيه ولو في كلمة، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك. وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور، وقد بُلي بهذا أهل الزمان. كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[١٦٢] فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور. وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من عماد الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب، فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور. إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات. فذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف، مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يُحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين، فاللب الأقصى هو العمل، والذي فوقه هو معرفة العمل. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها، فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يُعلم أنه ليس من علوم

[162] حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلا.

الشرع، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث أنها علوم، فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى.
الصنف الثاني أرباب العبادة والعمل، والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد، وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم. فمنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهي عنه، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه. وفرقة أخرى غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة، ويُخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته. وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه، يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط، فهم على خير عند ربهم. وفرقة أخرى تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره، ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به، وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام. وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذًّا، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه. نعم تلاوته إنما تراد لكيلا يُنسى بعد حفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه. وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه، وإنما هي لذته في صوته، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته. وفرقة أخرى أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكرا ورُد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر علي، وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير، وإنما غرضه أن يقال أنه إمام مسجد فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه. وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد

عليها فهو مغرور. وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته. وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم. وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين في الإنسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على مالا يفوت. ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض لأن المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها.

الصنف الثالث المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة، ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء، وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف. وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد أنهم أجراء متعبون، ويقول في العلماء أنهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين. وفرقة أخرى وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلِم أتعب نفسي، وبعضهم يقول قد كُلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال، فقد كُلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال، ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكَلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كُلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع، وبعضهم يقول الأعمال بالجوارح لا وزن لها وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن

تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به. وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلوا عن مقارفة ما يكره الله عز وجل، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياءا من الخلق، ولو خلا لما تركه حياءا من الله تعالى، وليس يدري أكل ذلك يناقض الحب. وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد. الصنف الرابع أرباب الأموال والمغترون منهم فرق، ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين أحدهما أنهم يبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير، والوجه الثاني أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الأنفاق على الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك. وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين أحدهما الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس، والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات، ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كله في رقبته إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. وفرقة أخرى ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا. وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعا. ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان يكثر الحج بلا سبب، يُهون عليهم السفر ويُبسط لهم في الزرق، ويرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وقال أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء. فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم. قال بشر فأي شئ تبتغي

بحجك تزهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله. قال ابتغاء مرضاة الله. قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال نعم. قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم، وإغاثة اللهفإن، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك. وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها. ولذلك قيل لبشر أن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره. وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء. فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور. وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا، وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مُرغِّبا في الخير، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها. وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا.

فإن قلت فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات. فأقول الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض. حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحر استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه، فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه. وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال لو صح منك الهوى أُرشدت للحيل. فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى

عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها. فإن قلت قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالفعل والعلم والمعرفة، فهذه ثلاثة أمور لا بد منها. أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور. فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يُفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة. فأساس السعادات كلها العقل والكياسة. إن الرجلان ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظا أفضل من العقل واليقين. فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها. الثاني المعرفة، وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة. فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا في هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يُتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه. وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة. فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة. وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور. فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم. أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله. وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها. فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها. فإن قلت فإذا فُعل جميع ذلك فما الذي يُخاف عليه؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوته الناس إلى ما عرفه من دين الله. فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات، واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه، فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فغلب على قلبه الرحمة لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من

غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وسهل عليه دواؤهم وإشفاؤهم، فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم، وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد، فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات، والتصنع في الزي والهيئة، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذا رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع، فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم، فخدموه وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة، أصابت من الدنيا شهوة يُستحقر معها كل شهوة، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها. فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة، وأمارة أنتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرُد عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله، فوقع في الغرور. فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحذر من طوارق الخطرات. فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء. فإن قلت فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم، وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم، فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذ لم يقترن به حمد الله تعالى. فإن قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب، فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حب الدنيا رأس كل خطيئة"، ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعا، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مُهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر. فإنظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس، فإن الله تعالى يُصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، وأن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم. فإن قلت فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار؟ فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء، وما قدرت عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري، فيصغي إليه ويصدقه ويعجب بنفسه من فراره في الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي. فإذن المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة، فإن الأمور بخواتيمها.

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله، وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذي أرسله، وأطلق الحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله، وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وسلم ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي. فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له، واللسان رحب الميدان، ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار. ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله. وعِلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير. وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وأنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونُعرِّف طريق الاحتراز عنها، ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها. فنذكر أولا فضل الصمت، ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخوض في الباطل، ثم آفة المراء والجدال، ثم آفة الخصومة، ثم آفة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء بالشعر، وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة وهي آخر الآفات، وما يتعلق بذلك، وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت. فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: "من صمت نجا"[١٦٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: "الصمت حكم وقليل فاعله"[١٦٤]، أي حكمة وحزم. وروي عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: "قلت يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم. قال: قلت فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه"[١٦٥]. وقال عقبة بن عامر: "قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"[١٦٦]. وقال سهل بن سعد الساعدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة"[١٦٧]. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: "الأجوفان، الفم والفرج"[١٦٨]، فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، فقد قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"[١٦٩]. وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم. فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه"[١٧٠]. وقال ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كف لسانه ستر الله عورته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره"[١٧١]. وعن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق"[١٧٢]. وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت". وعن البراء بن عازب قال جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: "أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، فإن لم تطق

---

[163] حديث من صمت نجا أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبراني بسند جيد.

[164] حديث الصمت حكمة وقليل فاعله أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة، وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت، قال والصحيح عن أنس أن لقمان قاله، ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسند صحيح إلى أنس.

[165] حديث سفيان الثقفي أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك الحديث أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان.

[166] حديث عقبة بن عامر قلت يا رسول الله ما النجاة قال أملك عليك لسانك الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن.

[167] حديث سهل بن سعد من يتوكل لي بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة رواه البخاري.

[168] حديث سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

[169] حديث معاذ قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

[170] حديث ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول يا لسان قل خيرا تغنم وفيه مرفوعا أن أكثر خطايا بني آدم في لسانه أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن.

[171] حديث ابن عمر من كف لسانه ستر الله عورته الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن.

[172] حديث صفوان بن سليم مرفوعا ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا.

فكف لسانك إلا من خير"[173]. وقال صلى الله عليه وسلم: "اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان"[174]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ علم ما يقول"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة"[175]. الآثار، كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبد الله بن مسعود والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال الحسن ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد، فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين، السلامة في دينه والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم، فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الآخر إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرابع أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. فإن قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة، وهي سيانة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب. ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة، فقد قال الله تعالى: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}. ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام، قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع. وهذا الربع فيه خطر، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفي دركه، فيكون الإنسان به مخاطرا. ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعا أن ما ذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب، حيث قال: "من صمت نجا"، فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم. ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، وفيما سنذكره من

---

[173] حديث البراء جاء أعرابي فقال دلني على عمل يدخلني الجنة قال أطعم الجائع الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

[174] حديث اخزن لسانك إلا من خير الحديث أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير ولابن حبان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر.

[175] حديث إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة.

الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى. ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتديء بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلا، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول، وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى. الآفة الأولى، الكلام فيما لا يعنيك. اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك. فكم من كلمة يبنى بها قصرا في الجنة، ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى. فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة، ونطقه إلا ذكرا. بل رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه"[176]. وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض، فخرج يمشي حتى أتاه، فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب. فقال صلى الله عليه وسلم: "من هذه المتألية على الله"، قال هي أمي يا رسول الله. قال: "وما يدريك يا أم كعب، لعل كعبا قال ما لا يعنيه، أو منع ما لا يغنيه"[177]، ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه غير مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب. وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول: "خمس لهن أحب إلي من الدهم الموقوفة، لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت[178]، ولا تمار حليما ولا سفيها فإن الحليم يقليك[179] والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام". وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك؟ قال لا أسأل عما كُفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه. قالوا وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رضي الله عنه: "لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى". وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام ولو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر. وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج

---

[176] حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

[177] حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث وفيه لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه.

[178] العَنَت: المكابرة والعناد (المعجم الوجيز)

[179] يبغضك ويكرهك (المعجم الوجيز)

بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك. وأبى تسلم من الآفات التي ذكرناها ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم؟ فإن قال نعم، كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال لا كان كاذبا، وإن سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع. وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه؛ وسؤالك عما حدث به غيرك، فتقول له ماذا تقول وفيم أنت. وكذلك ترى إنسانا في الطريق فتقول من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري فيجيب عن غير بصيرة. ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر، وإنما مثال ما لا يعني ما روي أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال، فاستغني عن السؤال. فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعني، وتركه من حسن الإسلام فهذا حده، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها. وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين. هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فالعزلة، أو أن يضع حصاة في فيه، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جدا.

الآفة الثانية: فضول الكلام، وهو أيضا مذموم. وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة. فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول، أي فضل عن الحاجة، وهو أيضا مذموم لما سبق، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن أبي رباح أن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل:{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}. وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا

وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت، فقال: "قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان"[١٨٠]، إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته. وقال مجاهد إن الكلام ليكتب حتى أن الرجل ليُسكِت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا. وقال الحسن: يا ابن آدم بُسِطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك، فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل. وروي أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه، فسأله سليمان عن ذلك. فقال: عجبت من الملائكة على رءوس الناس ما أسرع ما يكتبون، ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يُمْلون. وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك، والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقال يزيد بن أبي حبيب: "من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستمتاع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان". وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها. وقال إبراهيم يُهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني، أو أكثر مما يعني، فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس، أو الخوض في الباطل، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار علي ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة"[١٨١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا"[١٨٢]. وقال صلى الله عليه وسلم: "أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل"[١٨٣]، وإليه الإشارة بقوله تعالى:{وكنا نخوض مع الخائضين}، وبقوله تعالى:{فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم}. وقال سلمان أكثر الناس ذنوبا

---

[180] حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

[181] حديث بلال بن الحارث إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح وكان علقمة يقول كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث.

[182] حديث إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذي إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار لفظ الترمذي وقال حسن غريب وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة.

[183] حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبراني موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح

يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله. فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها، أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها؛ ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

الآفة الرابعة: المراء[184] والجدال، وذلك منهي عنه. قال صلى الله عليه وسلم: "لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه"[185]، وقال صلى الله عليه وسلم: "من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة"، وقال أيضا: "ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل"[186]. وقال الزبير لابنه لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم، ولكن عليك بالسنة. وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل، وقال مسلم بن يسار إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه ليس هذا الجدال من الدين في شيء، وقال أيضا المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن، وقال لقمان لابنه يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك، وقال بلال بن سعد إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته، وقال سفيان لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان، وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش، وقال ابن أبي ليلى لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث، لا تتعلمه لتماري به ولا لتباهي به ولا لترائي به، ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضا بالجهل منه". وقال عيسى عليه السلام: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى. وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين فاسكت عنه. والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه، بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير، وذلك يكون تارة من قصور المعرفة، وتارة يكون بطغيان اللسان. وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله. وأما في المعنى فبأن يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا، وأما في قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه. وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خُص باسم الجدل، وهو أيضا مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن. وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المُظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه. ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه. وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على

[184] المناظرة والجدال (المعجم الوجيز)

[185] حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

[186] حديث ما ضل قوم إلا أوتوا الجدل أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد بعد هدى كانوا عليه.

الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. وأما إظهار الفضل فهو من قبل تزكية النفس، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية. وأما تنقيض الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قوتهما المراء والجدال. فالمواظب على المراء والجدال مقو لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد الكراهة، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتماريين، كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه، بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه. وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره. فإن علاج كل علة بإماطة سببها، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه. روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي لم آثرت الإنزواء؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجدال؛ فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم؛ قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها. وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا في أعلى الجنة، لشدة ذلك على النفس، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعا تلطف في نصحه في خلوة، لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد، فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه. وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها.

الآفة الخامسة: الخصومة، وهي أيضا مذمومة، وهي وراء الجدال والمراء. فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء، وتارة يكون اعتراضا. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"[١٨٧]. وقال بعضهم إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال ما يجلسك ههنا؟ قلت خصومة بيني وبين ابن عم لي. فقال إن لأبيك عندي يدا، وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة. قال فقمت لأنصرف فقال لي خصمي مالك؟ قلت لا أخاصمك. قال إنك عرفت أن الحق لي. قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال فإني لا أطلب منك شيئا هو لك. فإن قلت فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم، مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب، هو يتوكل في

[187] حديث عائشة أن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم أخرجه البخاري.

الخصومة من أي جانب كان فيخاصم بغير علم، ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره، مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال. وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني أن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي. وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء، ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا. فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نُسي المتنازَع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته، ويطلق اللسان في عرضه. فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى أنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب. فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال. فينبغي أن لا يُفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا. فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا إنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما. نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهَّله أو كذَّبه فيفوت به طيب الكلام. وقد قال الله تعالى:{وقولوا للناس حسنا}. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا، إن الله تعالى يقول وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها. وقال ابن عباس أيضا: لو قال لي فرعون خيرا لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة لغرفا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام"[188]. وروي أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال مر بسلام، فقيل يا روح الله أتقول هذا لخنزير فقال أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الطيبة صدقة"[189]، وقال: "اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة". وقال عمر رضي الله عنه: "البر شيء هين، وجه طليق وكلام لين". وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة، وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف"، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني

[188] حديث أنس إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها الحديث أخرجه الترمذي.

[189] حديث الكلمة الطيبة صدقة أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام"[١٩٠]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا هلك المتنطعون" ثلاث مرات، والتنطع هو التعمق والاستقصاء. وقال عمر رضي الله عنه شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان. وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام، فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها"[١٩١]، وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة، وهذا أيضا من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات. إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين فقال بعض قوم الجاني كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل فقال: "أسجعا كسجع الأعراب"[١٩٢]، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم. ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان، وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم، قال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش"[١٩٣]. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: "لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم"[١٩٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى"[١٩٥]. وقال جابر بن سمرة كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا"[١٩٦]. فهذه مذمة الفحش، فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز، فيذكرون ما يقربها ويتعلق بها. وقال ابن عباس: إن الله حي كريم يعفو، ويكنو كنى باللمس عن الجماع. فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات

---

[190] حديث إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون أخرجه أحمد من حديث أبي ثعلبة وهو عند الترمذي من حديث جابر وحسنه بلفظ إن أبغضكم إلي.

[191] حديث سعد يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها رواه أحمد.

[192] حديث كيف ندى من لا شرب ولا أكل الحديث أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضا.

[193] حديث إياكم والفحش الحديث أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

[194] حديث النهي عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح أن رجلا وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه الحديث وفيه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا.

[195] حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروي موقوفا قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح.

[196] حديث جابر بن سمرة أن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء الحديث أخرجه احمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

عن الوقاع وليست بفاحشة، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها. وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضا ما يُخفى، وكل ما يخفى يُستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش. وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء، فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة أو من وراء الستر أو قالت أم الأولاد، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يُستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها، كالبرص والقرع والبواسير، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش، وجميع ذلك من آفات اللسان. والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم، ومن عادتهم السب. وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني، فقال: "عليك بتقوى الله، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه، يكن وباله عليه وأجره لك، ولا تسبن شيئا"، قال فما سببت شيئا بعده.[١٩٧] وقال عياض بن حمار قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: "المستابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان"[١٩٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: "سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر"، وقال صلى الله عليه وسلم: "المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم"[١٩٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "ملعون من سب والديه"[٢٠٠].

الآفة الثامنة: اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، وكل ذلك مذموم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن ليس بلعان"[٢٠١]. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم"[٢٠٢]. واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع، فإن في اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه. والصفات المقتضية للعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب، الأولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفسقة، الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى

---

[197] حديث قال أعرابي أوصني فقال عليك بتقوى الله وأن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه الحديث أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر.

[198] حديث عياض ابن حمار قلت يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس أن أنتصر منه فقال المستابان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران أخرجه أبو داود والطيالسي وأصله عند أحمد.

[199] حديث المستبان ما قالا فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال ما لم يعتد.

[200] حديث معلون من سب والديه وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو وفي رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه.

[201] حديث المؤمن ليس بلعان، تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذي وحسنه من حديث ابن عمر لا يكون المؤمن لعانا

[202] حديث لا تلاعنوا بلعنة الله الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي حسن صحيح.

والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز، ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يُمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا، الثالثة اللعن للشخص المعين، وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته، كقولك فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعُرف ذلك شرعا، وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودي مثلا، فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله، فكيف يُحكم بكونه ملعونا، فإن قلت يلعن لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال، وإن كان يُتصور أن يرتد، فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة، فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام، وذلك غيب لا يُدري، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر. وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة، وذكر جماعة قتلوا على الكفر، حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنُهي عنه، إذ روى أنه كان يلعن الذي قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى:{ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون}، يعني أنهم ربما يسلمون، فمن أين تعلم أنهم ملعونون. وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز، كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف، فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة، فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام، فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف، ثم أقبل على أبي بكر فقال: "يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء" فكف الناس عن ذلك[٢٠٣]. وشرب نعيمان الخمر فحُد مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابه: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تكن عونا للشيطان على أخيك"[٢٠٤]. وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز. وعلى الجملة ففي لعن

---

[203] حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله الحديث وفيه فإذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا.

[204] حديث شرب نعمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عونا للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك وللبخاري من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده في الشراب فأتي به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه أكثر ما يؤتي به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث

الأشخاص خطر فليُجتنب. ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره. فإن قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به، قلنا هذا لم يثبت أصلا، فلا يجوز أن يقال أنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضلا عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق. نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما، فإن ذلك ثبت متواترا، فلا يجوز أن يُرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق. قال صلى الله عليه وسلم: "لا يرمى رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك"[٢٠٥]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما، إن كان كافرا فهو كما قال، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه"[٢٠٦]، وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم، فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا. وقال مسروق دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت ما فعل فلان لعنه الله؟ قلت توفي، قالت رحمه الله. قلت وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"[٢٠٧] وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم. أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا"[٢٠٨]. وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين. فالاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة. ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم، كقول الإنسان مثلا لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله، وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم.

الآفة التاسعة: الغناء والشعر: وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده. وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، إلا أن التجرد له مذموم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن يمتليء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتليء شعرا"[٢٠٩]. وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر، وسئل بعضهم عن شيء من الشعر، فقال أجعل مكان هذا ذكرا، فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره، قال صلى الله عليه وسلم: "إن من

أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفي رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم وفي رواية لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله فنهاه عن ذلك.

[205] حديث لا يرمي رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه أن لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق.

[206] حديث ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

[207] حديث عائشة لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا أخرجه البخاري وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة.

[208] حديث أيها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عياض الأنصاري احفظوني في أصحابي وأصهاري وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة لا تسبوا أصحابي ولأبي داود والترمذي وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم وللنسائي من حديث عائشة لا تذكروا موتاكم إلا بخير وإسناده جيد.

[209] حديث لأن يمتليء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتليء شعرا أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد.

الشعر لحكمة"[٢١٠]. نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح[٢١١]، فإنه وإن كان كذبا فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب، كقول الشاعر ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله، فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته. وقد أُنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تُتبعت لوُجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه. قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه، فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا، قالت: فبُهِت، فنظر إلي فقال: مالك بهت؟ فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقك يتولد نورا، ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره. قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي؟ قلت يقول هذين البيتين: ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل. قالت فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلي وقبل ما بين عيني، وقال: جزاك الله خيرا يا عائشة، ما سررت مني كسروري منك[٢١٢]. ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص، فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره: وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع، فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه، فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضى الناس، فقال له صلى الله عليه وسلم: أتقول فيَّ الشعر؟ فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيبا على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بدا من قول الشعر. **فتبسم صلى الله عليه وسلم** وقال: "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"[٢١٣].

الآفة العاشرة: المزاح، وأصله مذموم منهي عنه إلا قدرا يسيرا يستثنى منه. قال صلى الله عليه وسلم: "لا تمار أخاك ولا تمازحه"، فإن قلت المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق أو تجهيلا له، وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب، فلِم يُنهى عنه؟ فاعلم أن المنهي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، كما روي عن النبي

---

[210] حديث إن من الشعر لحكمة تقدم في العلم وفي آداب السماع.

[211] حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم وجبريل معك.

[212] حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل إلى آخر الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة.

[213] حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه الحديث أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس أنجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع، وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع، وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع. قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة، وزاد في رواية أعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة اقطعوا عني لسانه فليست في شيء من الكتب المشهورة.

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إني لأمزح ولا أقول إلا حقا"، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يُضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى في النار أبعد من الثريا"، وقال عمر رضي الله عنه: "من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استُخف به، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه". فهذه آفة الضحك، والمذموم منه أن يستغرق ضحكا، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص[٢١٤] له صعب فسلم، فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه، ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله، فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك. فقال: "نعم وأفواهكم ملأى من دمه"[٢١٥]. وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار، فقد قال عمر رضي الله عنه من مزح استخف به؛ وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم؛ وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترئ عليك؛ وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال؛ وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لما سمي المزاح مزاحا؟ قالوا لا؟ قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح، ويقال المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء. فإن قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فكيف يُنهى عنه؟ فأقول إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا، ولا تؤذي قلبا، ولا تُفْرط فيه، وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويُفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يُغفل عن هذا. نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال: "إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقا". وقال أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه؛ وروي أنه كان كثير التبسم. وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز، فبكت، فقال: "إنك لست بعجوز يومئذ، قال الله تعالى:{إنا أنشأناهن أنشاء فجعلناهن أبكارا}"[٢١٦]. وقال زيد بن أسلم إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت إن زوجي يدعوك، قال: ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ قالت والله ما بعينه بياض. فقال: بلى إن بعينه بياضا. فقالت لا والله، فقال صلى الله عليه وسلم: ما من أحد إلا وبعينه بياض؛ وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءت امرأة أخرى فقالت يا رسول الله احملني على بعير، فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت

---

[214] القلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق، وذلك من حين تركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة (المعجم الوجيز)

[215] حديث القاسم مولى معاوية أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص صعب له فسلم فجعل كلما دنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل.

[216] حديث الحسن لا يدخل الجنة عجوز أخرجه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

ما أصنع به إنه لا يحملني. فقال صلى الله عليه وسلم: ما من بعير إلا وهو ابن بعير[٢١٧]. وقال أنس كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول يا أبا عمير ما فعل النغير؟ والنغير كان يُلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضي الله عنها أنه جاء يوم ونحن بذي الحجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال أعطنيه فأبيت وسعيت وسعى في أثري فلم يدركني، وقالت أيضا سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سابقني فسبقني وقال هذه بتلك. وقالت أيضا رضي الله عنها كان عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئا منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني، فتناولت من الصحفة شيئا فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك. وروي أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلا دميما قبيحا، فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها، وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما. وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له، فقال له عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط، فقال صلى الله عليه وسلم أن من لا يرحم لا يُرحم. فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل. وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا: "أتأكل التمر وأنت رمد؟" فقال إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله، فتبسم صلى الله عليه وسلم[٢١٨]. وروي أن خوات ابن جبير الأنصاري كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة؟ فقال يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود، قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته، ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة، وبعد ما قدمت المدينة قال فرآني في المسجد يوما أصلي فجلس إلي، فطولت فقال لا تطول فإني أنتظرك، فلما سلمت قال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرر منه، حتى لحقني يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد فقال أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ فقلت والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت. فقال الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله، قال فحسن إسلامه وهداه الله. وكان نعيمان الأنصاري رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله"، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يا رسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله

[217] حديث قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ أنا حاملك على ولد الناقة فكان يمزح به.

[218] حديث قال لصهيب وبه رمد أتأكل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه (أي ضروسه صلى الله عليه وسلم).

عليه وسلم وقال يا رسول الله أعطه ثمن متاعه، فيقول له صلى الله عليه وسلم: "أو لم تهده لنا"، فيقول يا رسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه. فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشر: السخرية والاستهزاء، وهذا محرم مهما كان مؤذيا، كما قال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن}. ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحِك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة. وقال ابن عباس في قوله تعالى: {يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها}، إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك، وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر. وقال معاذ بن جبل: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله"[٢١٩]. وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له، وعليه نبه قوله تعالى:{عسى أن يكونوا خيرا منهم}، أي لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك. وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يُضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كنت مشوشة، كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب. فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها.

الآفة الثانية عشر: إفشاء السر، وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا حدث الرجل ثم التفت فهي أمانة"، وقال مطلقا: "الحديث بينكم أمانة". وقال الحسن أن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك. ويُروى أن معاوية رضي الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه، فقال لأبيه: يا أبت إن أمير المؤمنين أسر إلي حديثا وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك، قال: فلا تحدثني به، فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟ فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر. قال فأتيت معاوية فأخبرته، فقال: يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ، فإفشاء السر خيانة. وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

الآفة الثالثة عشر: الوعد الكاذب: فإن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفا، وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال:{إنه كان صادق الوعد}، قيل إنه وعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسي فبقي إسماعيل اثنين وعشرين يوما في انتظاره. ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش، وقد كان إليه مني شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي. وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى. ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر.

---

[219] حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله أخرجه الترمذي دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس إسناده بمتصل قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه.

فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفي فهذا هو النفاق، وقال أبو هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان"، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقا، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"، وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يتحرز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة.

الآفة الرابعة عشرة، الكذب في القول واليمين: وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب. قال إسماعيل بن واسط سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول، ثم بكى، وقال إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار"[٢٢٠]. وقال الحسن: كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب". وقال صلى الله عليه وسلم: "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب"[٢٢١]، وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا". وقال صلى الله عليه وسلم" ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر"[٢٢٢] وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال حتى أعطيك، فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت تمرا فقال "أما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة"[٢٢٣] وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قعد وقال: ألا وقول الزور". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"[٢٢٤] وقال صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان" (متفق عليه). وأما الآثار، فقد قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة.

---

220 حديث أبي بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي هذا عام أول ثم بكى وقال إياكم والكذب الحديث أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر وإنما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن.

221 حديث كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدي ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد.

222 حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم الحديث وفيه والإمام الكذاب أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

223 حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي يا عبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت أن تعطيه قالت تمرا فقال أن لم تفعلي كتبت عليك كذبة، رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم أن عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة.

224 حديث من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب.

بيان ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبَر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا، وقد يتعلق به ضرر غيره. ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه، وربما كان واجبا. قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فإنتهى إليك فقال أرأيت فلانا، ما كنت قائلا؟ ألست تقول لم أره، وما تصدق به. وهذا الكذب واجب. فنقول الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا. كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم أمرىء مسلم قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة. فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة. والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها". وقالت أيضا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس بكذاب من أصلح بين اثنين، فقال خيرا أو نمى خيرا" (متفق عليه). وروي أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ثم قال لامرأته أنشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها، فقال أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه؟ فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فاكذبي، فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب. فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره. فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه، وإن كان كاذبا؛ وأما عرض غيره فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييبا لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به. ولكن الحد فيه أن الكذب محذور. ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق. وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه. ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه

ويهجر الكذب. فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به. وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذورا، حتى أن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات وذلك حرام. وقالت أسماء: سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علي شيء فيه، فقال صلى الله عليه وسلم: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور" (متفق عليه) وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق. وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا، وذلك غامض جدا، والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه، كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان. **وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح**، وهو خطأ محض إذ قال صلى الله عليه وسلم: "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"، (متفق عليه)، وهذا لا يُرتكب إلا لضرورة، ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها، وقول القائل أن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه وما هو جديد، فوقعه أعظم فهذا هوس، إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة، فلا يقاوم خير هذا شره أصلي، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شيء. نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض[225] مندوحة عن الكذب. قال عمر رضي الله عنه: أمَا في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب! وروي ذلك عن ابن عباس وغيره، وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا. ولكن التعريض أهون، ومثال التعريض ما روي أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله، وقال إبراهيم إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب، فقل إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده الإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء، فقال كان عندي ضاغط. قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا، وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال: بعثت معك ضاغطا؟ قال لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئا، فقال أرضها به. ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا، وأراد به الله تعالى. وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا، بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا، فإنه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ههنا كيلا يكون كذبا. وهذا كله في موضع الحاجة، فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب، وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة. نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير

[225] المعراض: التورية والفحوى، وأصله الستر، والجمع معاريض (المعجم الوجيز)

بالمزاح، كقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز، وحديث في عين زوجك بياض، وحديث نحملك على ولد البعير (تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة)، وما أشبهه. وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير إذ قال له أنه نعيمان، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك، فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب. ومما يعتاد الكذب فيه ويُتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح. قال مجاهد قالت أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قِرى[٢٢٦] إلا قدحا من لبن فشرب ثم ناوله عائشة، قالت: فاستحيت الجارية، فقلت: لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذي منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه، ثم قال: ناولي صواحبك، فقلن لا نشتهيه. فقال لا تجمعن جوعا وكذبا. قالت: فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا؟ قال: "إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذبة كذيبة"[٢٢٧]. وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فإنكبت عليه فقالت: "كيف أنت يا بني؟" فجلس الربيع وقال أرضعتيه؟ قالت: لا. قال: ما عليك لو قلت يا ابن أخي؟

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة، والنظر فيها طويل. فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع. وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبه بآكل لحم الميتة، فقال تعالى: {ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه}، وقال صلى الله عليه وسلم: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"، والغيبة تتناول العرض، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم. وقال أبو برزة قال صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا" (متفق عليه). وقال البراء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العوانق في بيوتهن، فقال: "يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته"[٢٢٨]. وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: "إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما

---

226 ما يقدم للضيوف (المعجم الوجيز)

227 حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة لكن في طبقات الأصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عطاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس زففنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه الحديث، فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك.

228 حديث البراء يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود في حديث أبي برزة بإسناد جيد.

فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله"[٢٢٩]. وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين. وكان الحسن يقول: ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته. أما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب فبأن تقول أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما الخلق فبأن تقول هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبال عاجز ضعيف القلب متهور وما يجري مجراه. وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك أنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. وأما في ثوبه فكقولك أنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب. وقال قوم لا غيبة في الدين لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي، وذمه بها يجوز بدليل ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: "هي في النار"، فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص، ولا يُحتاج إليه في غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم. والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد الغيبة. وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هل تدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "ذكرك أخاك بما يكرهه". قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقوله. قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته". وعن حذيفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت إنها قصيرة،

[229] حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما أنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث ابن بكرة نحوه بإسناد جيد.

فقال صلى الله عليه وسلم: "اغتبتيها"[٢٣٠]. وقال الحسن: ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عز وجل، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان: اعلم أن الذكر باللسان إنما حُرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يُفهِّم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام، فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتيها. ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال ما يسرني أني حاكيت إنسانا ولي كذا وكذا. وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره كما سيأتي بيانه، وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت، ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا، لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم، فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال: "ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا". وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويُفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر، فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه، فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا. ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق، فيقول عجب ما علمت أنه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلا بالخير وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه. فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت، أو يشير بحاجبه وجبينه، فإن ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا. وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة".

---

[230] حديث عائشة أنها ذكرت امرأة فقالت غنها قصيرة فقال اغتبتيها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا، ثمانية منها تطَّرِد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة. أما الثمانية، فالأول أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثَمَ دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدا ثابتا، فيكون سببا دائما لذكر المساوي، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة. الثاني، موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارا للمساهمة في السراء والضراء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي. الثالث، أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتديء بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول، ويستشهد ويقول ما من عادتي الكذب فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت. الرابع، أن يُنسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبريء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل، ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله. الخامس، إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه، فيقدح فيه لذلك. السادس، الحسد، وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يُسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد، وهو غير الغضب والحقد، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق. السابع، اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يُضحِك الناس على سبيل المحاكاة، ومنشؤه التكبر والعجب. الثامن، السخرية والاستهزاء استحقارا له، فإن ذلك قد يجري في الحضور، ويجري أيضا في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به. وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات، وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر. الأول، أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة، وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل. الثاني، الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلي به، فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه، فيذكره فيصير به مغتابا، فيكون غمه ورحمته خيرا وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه. الثالث، الغضب لله تعالى، فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء. فهذه

الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء، فضلا عن العوام، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم، وهو خطأ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتي ذكره. روي عن عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام. فلما جاوزهم قال رجل منهم إني لأبغض هذا في الله تعالى. فقال أهل المجلس لبئس ما قلت والله لننبئنه. ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فأدركه وأخبره بما قال، فأدركه رسولهم فأخبره، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله فقال قد قلت ذلك. فقال صلى الله عليه وسلم: لم تبغضه؟ فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة. قال فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها. فسأله فقال لا. فقال: والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال فاسأله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا. فسأله عنه فقال لا. فقال والله ما رأيته يعطي سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر. قال فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها. فسأله فقال لا. فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك[٢٣١].

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساويء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها فلنفحص عن سببها. وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين، أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل. أما على الجملة فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نُقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. وينفعه أيضا أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه، ومهما وجد عيبا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه. وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرا خَلقيا فالذم له ذم للخالق، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها، قال رجل لحكيم يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إلي فأحَسِّنه. وإذا لم يجد العبد عيبا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له. فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتاب، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه. فهذه معالجات جملية. أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب. أما

[231] حديث عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم أني لأبغض هذا في الله الحديث بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

الغضب فيعالجه بأن يقول إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة، إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره. وفي بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين: يا ابن آدم اذكرني حين تغضب، اذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق. وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك، فتترك رضاه لرضاهم، إلا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن نذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة. وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يُستغنى عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا، فتُخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة، ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يُقتدى به كائنا من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لِم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك. وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك، فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله، وأنت من إعتقاد الناس فضلِك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس، فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا. وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين، لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة، لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك، إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك، وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة. وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك، كما قيل: وإذا أراد الله نشر فضيله طويت أتاح لها لسان حسود. وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام. فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك. ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت به عند نفر قليل، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الإنتقام منك. وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك. وكذلك الغضب لله تعالى لا يُوجِد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة. وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة، فتعجَّب من نفسك أنت كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه، وأنت مع

ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا، وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك. فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان فمن قوى إيمانه بجميع ذلك أنكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يُحَرَّم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساويء الغير، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك. ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضا معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يُظن. والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم}، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته. وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق. وقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة}، فلا يجوز تصديق إبليس. وإن كان ثَم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه، لم يجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره، ولكن لا يجوز لك أن تصدق به، حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها، أو حُمل عليه قهرا. فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها. فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر. فإن قلت فبماذا يُعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فنقول أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده، وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه. أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه. والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته. وأما إذا أخبرك به عَدْل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا، لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضا من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر. نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه، فلك عند ذلك أن تتوقف وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره. إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق. ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه، لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار، وتترفع عليه بإيذاء الوعظ، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك،

وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه. ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق، فيشتغل بالتجسس، وهو أيضا منهي عنه، قال الله تعالى:{ولا تجسسوا}، فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به، فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهي ستة أمور. الأول التظلم، فإن من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم، إذ لا يمكنه استيفاء حقة إلا به، قال صلى الله عليه وسلم: "إن لصاحب الحق مقالا" (متفق عليه من حديث أبي هريرة)، وقال عليه السلام: "مطل[٢٣٢] الغنى ظلم" (متفق عليه). الثاني، الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح، كما روي أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان، وقيل على طلحة رضي الله عنهما، فسلم عليه فلم يرد السلام، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم، وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الآية فتاب، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره. وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح، فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما. الثالث، الاستفتاء، كما يقول للمفتي ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص، والأسلم التعريض، بأن يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته، ولكن التعيين مباح بهذا القدر، لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم أن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه؟ فقال: :خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف" (متفق عليه)، فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم ينزجرها صلى الله عليه وسلم، إذ كان قصدها الاستفتاء. الرابع، تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق. وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة، فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به. وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم، الإمام الجائر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه. الخامس، أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه، كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو

[232] مطل فلانا حقه: أجل موعد الوفاء به مرة بعد الأخرى (المعجم الوجيز)

علمه بعد أن قد صار مشهورا به. نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى. السادس، أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له، ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له"[٢٣٣]. وقال عمر رضي الله عنه: ليس لفاجر حرمة، وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر، إذا المستتر لا بد من مراعاة حرمته. وقال الصلت بن طريف قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذكرى له بما فيه غيبة له؟ قال: لا ولا كرامة. وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم، صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر. فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟ وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج، فقال: إن الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله. إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادما، فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال، وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح. بل في الحديث الصحيح ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته". (متفق عليه من حديث أبي هريرة). وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى أنها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها. فإذن لا بد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات. فإن قلت فالتحليل هل يجب، فأقول لا لأنه تبرع، والتبرع فضل وليس بواجب، ولكنه مستحسن. وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتوددة حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة. وكان بعض السلف لا يحلل، قال سعيد بن المسيب لا أحلل من ظلمني، وقال ابن سيرين إني لم أحرمها عليه فأحللها له، إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا. فإن قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها، وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن، فنقول المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة. وعلى الجملة فالعفو أفضل، وقد قال الله تعالى:{خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا العفو؟ فقال إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من

[233] حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف.

حرمك. وروي عن الحسن أن رجلا قال له أن فلانا قد اغتابك فبعث إليه رطبا على طبق، وقال: قد بلغني أنك أهديت إلي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة، قال الله تعالى:{هماز مشاء بنميم} ثم قال:{عتل بعد ذلك زنيم}، قال عبد الله بن المبارك: الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا، استنباطا من قوله عز وجل:{عتل بعد ذلك زنيم}، والزنيم هو الدعي. وقال تعالى:{ويل لكل همزة لمزة}، قيل الهمزة النمام. وقال تعالى:{حمالة الحطب}، قيل أنها كانت نمامة حمالة للحديث، وقال تعالى:{فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا}، قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون. وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة نمام" (متفق عليه من حديث حذيفة}. وقال أبو هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرءاء العثرات"[٢٣٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرءاء العيب"[٢٣٥] وقال أبو ذر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة"[٢٣٦]

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يُكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه، أو لم يكن. بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يُكره كشفه. بل إن كان ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يُكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر. فإن كان ما ينم به نقصا وعيبا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل. وكل من حملت إليه النميمة وقيل له أن فلانا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالاة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور. الأول، أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة}. الثاني، أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله، قال الله تعالى:{وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر}. الثالث، أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من

---

[234] حديث أبي هريرة وأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير.

[235] حديث ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاءون بالنميمة الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري.

[236] حديث أبي ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شأنه الله بها في النار يوم القيامة أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني في مكارم الأخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث.

يبغضه الله تعالى. الرابع، أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى:{اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم}. الخامس، أن لا يحملك ما حُكي لك على التجسس والبحث لتحقق، اتباعا لقول الله تعالى:{ولا تجسسوا}. السادس، أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته، فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماما ومغتابا، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت. وروي أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا، فقال الرجل ما فعلت ولا قلت. فقال سليمان إن الذي أخبرني صادق. فقال له الزهري لا يكون النمام صادقا، فقال سليمان صدقت، ثم قال للرجل اذهب بسلام. وقال الحسن: من نم إليك نم عليك، وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغض ولا يُوثق بقوله ولا بصداقته، وكيف لا يُبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، وقال تعالى:{إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق} والنمام منهم، وقال صلى الله عليه وسلم: إن من شرار الناس من اتقاه الناس لشره". (متفق عليه من حديث عائشة نحوه) والنمام منهم. وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد. وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه، حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يُخاف جانبه سميت سعاية. ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال أني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته. فقال قل. فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا، وفي الأمانة تضييعا، والأعراض قطعا وانتهاكا، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة، وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره. وقال رجل لعمرو بن عبيد أن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشر، فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل، حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين اعلمتني عن أخي ما أكره. ولكن اعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا، أبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع، أو سماع باغ يريد فسادك، ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل. وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى.

السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين، الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة"[٢٣٧]. وقال أبو هريرة، قال سول الله صلى الله عليه وسلم: "تجدون من

[237] حديث عمار بن ياسر من كان له وجهأن في الدنيا كان له لسانأن من نار يوم القيامة أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن.

شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث"[٢٣٨]. وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم إمعة، قالوا وما الإمعة؟ قال الذي يجري مع كل ريح. واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها. فإن قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك؟ فأقول إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معادة الأعداء. نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين، وهو شر من النميمة، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام، وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه، فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه، قيل لابن عمر رضي الله عنهما إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الآفة الثامنة عشرة: المدح، وهو منهي عنه في بعض المواضع، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة فقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات، أربع في المادح، واثنتان في الممدوح. فأما المادح فالأولى، أنه قد يُفْرط فينتهي به إلى الكذب، قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه. والثانية، أنه قد يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله، فيصير به مرائيا منافقا. الثالثة، أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وروي أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام: "ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح"، ثم قال "إن كان أحدكم لا بد مادحا أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحد، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك" (متفق عليه). وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تُعرف بالأدلة، كقوله أنه متق وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه. فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة، ومن ذلك قوله أنه عدل رضا، فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه. سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثني على رجل، فقال أسافرت معه؟ قال لا، قال أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال لا. قال أفأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه. الرابعة، أنه قد يُفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. وقال الحسن من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى في أرضه. والظالم الفاسق ينبغي أن يُذم ليغتم، ولا يُمدح ليفرح، وأما الممدوح فيضره من وجهين، أحدهما أنه يُحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود بن المنذر فقال رجل هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود. فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال مالي ولك، أما سمعتها؟ قال سمعتها فمه. قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطيء منك. الثاني، هو أنه إذا أُثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنما يتشمر للعمل

---

[238] حديث أبي هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الحديث متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ مصنف وفي لفظ آخر الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

من يرى نفسه مقصرا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك. وقال مطرف ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي، وقال زياد بن أبي مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما. فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوبا إليه.

بيان ما على الممدوح: اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه. وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح، قال صلى الله عليه وسلم: "احثوا التراب في وجوه المادحين" (أخرجه مسلم). وقال سفيان بن عيينة لا يضر المدح من عرف نفسه، وأُثني على رجل من الصالحين فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني؛ وقال آخر لما أُثني عليه: اللهم إن عبدك هذا تقرب إلي بمقتك وأنا أشهدك على مقته؛ وقال علي رضي الله عنه لما أثني عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرا مما يظنون؛ وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؛ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه فقال: إنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك.

الآفة التاسعة عشر: الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأمور الدين، فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء. فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله، مثاله ما قال حذيفة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت"، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية، وهو على خلاف الاحترام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال صلى الله عليه وسلم: "أجعلتني لله عديلا بل ما شاء الله وحده"، وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال صلى الله عليه وسلم: "قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى"، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "ومن يعصهما" لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك، وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان. وكره بعضهم أن يقال اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول العتق يكون بعد الورود، وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار. وقال رجل اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة: إن الله يغني المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول لولاه لسرقنا الليلة. فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره، ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم: "من صمت نجا"، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك.

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن، إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول، خفيف على القلب. والعامي يفرح

بالخوض في العلم، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري، **وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته**. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات، والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث. وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك، وهو موجب للعقوبة. وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم" (متفق عليه). وفي الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال، وقال صلى الله عليه وسلم: "يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله، فإذا قالوا ذلك فقولوا قل هو الله أحد الله الصمد حتى تختم السورة، ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم" (متفق عليه). وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه، إذ قال:{فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا}، فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال:{لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا}، فلم يصبر حتى سأل ثلاثا قال:{هذا فراق بيني وبينك} وفارقه. فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك. وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشيء منها وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث، فاستحق بذلك العقوبة لا محالة، فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة، وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم.

كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره، وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره، ويُستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد، فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين. والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة. كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إل نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد، ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفإنية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب، وفي مرضها فوت حياة باقية، أولى. وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها. فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى:{قد أفلح من زكاها}، وإهمالها هو المراد بقوله:{وقد خاب من دساها}. ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع. وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها. ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يُعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يُعرف مرض القلب، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة. فهي أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب أن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق. قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه: {وإنك لعلى خلق عظيم}، وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن، وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى:{خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين}، ثم قال صلى الله عليه وسلم: "هو أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك".[٢٣٩] وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وقال صلى الله عليه وسلم: "أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق"[٢٤٠]، وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: "حسن الخلق" فأتاه من قبل يمينه فقال يا رسول الله ما الدين؟ قال: "حسن الخلق"، ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين؟ فقال: "حسن الخلق"، ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: "أما تفقه هو أن لا تغضب"[٢٤١]. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني. فقال: "اتق الله حيثما كنت"، قال زدني. قال: "اتبع السيئة الحسنة تمحها". قال زدني. قال: "خالق الناس بخلق حسن"[٢٤٢]. وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، قال: "لا خير فيها هي من أهل النار". وقيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيمانا؟ قال: "أحسنهم خلقا"[٢٤٣]. وعن أبي مسعود البدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: "اللهم حسنت خَلقي فحسن خُلقي"[٢٤٤] وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا"[٢٤٥]. وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة: "اللهم أهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"[٢٤٦] وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: "يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق"[٢٤٧] وعن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون؟ قال: "لأحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا، يا أم حبيبة ذهب

---

[239] حديث تأويل قوله تعالى خذ العفو الآية هو أن تصل من قطعك الحديث أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان.

[240] حديث أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

[241] حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال ما الدين قال حسن الخلق الحديث أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلا.

[242] حديث قال رجل أوصني قال اتق الله حيثما كنت الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح.

[243] حديث قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيمانا قال أحسنهم خلقا أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل المؤمنين والطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا.

[244] حديث أبي مسعود البدري اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله هكذا رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة.

[245] حديث إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة أن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا.

[246] حديث اللهم اهدني لأحسن الأخلاق الحديث أخرجه مسلم من حديث علي.

[247] حديث يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر.

حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة"[٢٤٨]. وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة"[٢٤٩] وروي أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضي الله عنه مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال: "عجبت لهؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب". فقال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن: نعم **أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم**. فقال صلى الله عليه وسلم: "إيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك" (متفق عليه). الآثار: قال ابن لقمان الحكيم لأبيه يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال الدين، قال فإذا كانت اثنتين، قال الدين والمال، قال فإذا كانت ثلاثا، قال الدين والمال والحياء، قال فإذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال فإذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال فإذا كانت ستا، قال يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي. وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد سيي الخلق. وقال الجنيد أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان. وقال عمر رضي الله عنه خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العزيز:{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، قيل فما الحسب؟ قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا، وقال لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو وما تعرضوا لحقيقته، وإنما تعرضوا لثمرته، ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته. بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب. وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى[٢٥٠] وكف الأذى، وقال الواسطي هو أن لا يُخاصِم ولا يُخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى، وقال شاه الكرماني هو كف الأذى واحتمال المؤن، وقال الواسطي مرة هو إرضاء الخلق في السراء والضراء، وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس. وقال علي

[248] حديث أنس قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرايطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف

[249] حديث أن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة الحديث أخرجه الطبراني والخرايطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد.

[250] الجود والسخاء والخير (المعجم الوجيز)

رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال، اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال. وقال الحسين بن منصور هو: أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى. فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة فنقول: الخَلق والخُلق عبارتان مستعملتان معا، يقال فلان حسن الخَلق والخُلق، أي حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة ويراد بالخُلق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى:{إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين}، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد، فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[٢٥١]. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خُلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا. وإنما قلنا أنها هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية، لا يقال خلقه السخاء والحلم. فههنا أربعة أمور، أحدها فعل الجميل والقبيح، والثاني القدرة عليهما، والثالث المعرفة بهما، والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين، إما الحسن وإما القبيح. وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء؛ وليس هو عبارة عن القوة، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدين، واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء. وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق، وهو قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث. أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال. فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها:{ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا}. وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع، وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع. فالعقل مثاله مثال الناصح المشير، وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة. فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق

[251] نظر وتفكير في الأمور "فعله عن روية" (المعجم العربي الأساسي)

مطلقا، ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة، وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة. فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا. والمحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفإن رذيلتان مذمومتان. والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور. وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثا وجربزة، ويسمى تفريطها بلها، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة. فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع. فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها، إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون، وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل، فقد يكون الإنسان غمرا[٢٥٢] في شيء دون شيء، والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يُختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا. وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها، وهي أخلاق محمودة، وأما إفراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب، وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب. وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك. فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، والباقي فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال، ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغي أن يُبعد، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدي به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال. وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى:{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}. فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة. والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط

[252] غرا أي غافلا عن الأمور أو لم يجربها (المعجم العربي الأساسي، المعجم الوجيز)

قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال، فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال:{أشداء على الكفار رحماء بينهم}، إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا. فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته، فزعم أن الأخلاق لا يُتصور تغييرها، فإن الطباع لا تتغير. واستدل فيه بأمرين، أحدهما أن الخُلق هو صورة الباطن كما أن الخَلق هو صورة الظاهر. فالخِلقة الظاهرة لا يُقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته. فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى. والثاني، أنهم قالوا حسن الخُلق يقمع الشهوة والغضب، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع، فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة، وذلك محال وجوده. فنقول لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حسنوا أخلاقكم"[٢٥٣]، وكيف يُنكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة، ممكن إذ ينقل البازي[٢٥٤] من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق. والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا، وسائر أجزاء الحيوانات، وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله؛ وإلى ما وُجد وجودا ناقصا وجُعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وُجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربة إليها، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربة، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا، ولو أردنا سلاستهما وقَوْدِهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أُمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم الجبلات[٢٥٥] مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود، فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا. والسبب الثاني أن الخُلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا، والناس فيه على أربع مراتب، الأولى وهو الإنسان الغفل[٢٥٦] الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح، بل بقي كما فُطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات، ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات، فهذا سريع

---

[253] حديث حسنوا أخلاقكم أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ يا معاذ حسن خلقك للناس منقطع ورجاله ثقات

[254] ضرب من الصقور يستخدم في الصيد (المعجم الوجيز)

[255] جمع "جبلة": الطبيعة والخلق (المعجم الوجيز)

[256] الذي لم تُحنكه التجارب (المعجم الوجيز)

القبول للعلاج جدا، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة، فيحسن خلقه في أقرب زمان. والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح، بل زُين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله، فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه، إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم. والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة، وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال. والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس، ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب، وفي مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول من هؤلاء جاهل فقط، والثاني جاهل وضال، والثالث جاهل وضال وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير. وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به وهو قولهم أن الآدمي ما دام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها. وهيهات فإن الشهوة خُلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك، ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا، وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل، ولذلك قال الله تعالى: {أشداء على الكفار رحماء بينهم}، وصفهم بالشدة. وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر"[٢٥٧]، وكان إذا تُكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق[٢٥٨]. وقال تعالى:{والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس}، ولم يقل والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق. فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش، وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها. والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير، وقد أثنى الله تعالى عليه:{فقال والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}، وقال

---

[257] حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر

[258] حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقا فكان الغضب لا يخرجه عن الحق أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه ولهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه الحديث.

تعالى:{ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط}. وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود، قال الله تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين}. وقال في الغضب:{أشداء على الكفار رحماء بينهم}. وقال صلى الله عليه وسلم: "خير الأمور أوساطها"[٢٥٩]. وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم، قال الله تعالى:{إلا من أتى الله بقلب سليم}. والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما، أي لا يكون ملتفتا إلى المال، ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه. فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا.

بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة، وللشرع أيضا. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين، أحدهما بجود إلهي وكمال فطري، بحيث يُخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق، قد كُفي سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع، فيصير عالما بغير تعليم، ومؤدبا بغير تأديب، كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد يُنال بالاكتساب، فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريا، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم. والوجه الثاني اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا، مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه، فيصير به جوادا. وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف، إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تُحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا، فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع. ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرة عيني في الصلاة". ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به، نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع، ولذلك قال الله تعالى:{وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين}، وقال صلى الله عليه وسلم: "اعبد الله في الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير". ثم لا يكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام، وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل. ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى

[259] حديث خير الأمور أوساطها أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا.

وأرسخ. وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا، ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه، وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزونا بميزغن الشرع والعقل. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه. فإذن قد عرفت بهذا قطعا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، أعني النفس والبدن. فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب... فكذلك طالِب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم، ولا يحرم عنها بعصيان يوم، وهو معنى قولنا أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد، ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسا، فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئا فشيئا على التدريج مثل نمو البدن وارتفاع القامة، فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال. ولكن لا ينبغي أن يُستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي فله ثواب لا محالة، فإن الثواب بإزاء الأثر، وكذلك المعصية. وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يُسوِف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة، أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها، وهو المعني بانسداد باب التوبة، وهو المراد بقوله تعالى: {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا}، الآية. ولذلك قال رضي الله تعالى عنه: "إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض فإذا استكمل العبد الإيمان إبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق أسود القلب كله". فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح. إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاثة حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل. وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه. فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل

والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل. وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة المرض لا تعالج إلا بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب... وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في جملة واحدة فقال تعالى:{وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى}. والأصل المهم في المجاهدة، الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة، وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له، حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار، وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته، قال الله تعالى:{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}. ففي كل عضو فائدة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة، وخاصة النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه، وأصل الأشياء ومُوجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل، فكأنه لم يعرف شيئا. وعلامة المعرفة المحبة، فمن عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات، كما قال الله تعالى:{قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم} إلى قوله {أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره}. فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، وبهذا يُعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح فإن

وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عُضالا والمرض مزمنا، واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب، وأنكر مرضها، وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات... فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة، ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف، فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة. وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم، أعني الوسط، حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذي مال إليه، ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق، قال الله تعالى:{وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا}، أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه. ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله اهدنا الصراط المستقيم، إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة. فقد رُوي أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: قد قلت يا رسول الله شيبتني هود فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام: لقوله تعالى فاستقم كما أمرت. فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها، فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة. فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج. ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى[٢٦٠] في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق، الأول أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عز في الزمان وجوده. الثاني، أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين كان عمر رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي، وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له ما الذي بلغك عني مما تكرهه، فاستعفى فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين[٢٦١]

---

[260] جمع قذاة: ما يقع في العين والشراب والماء من تراب وغير ذلك (المعجم الوجيز)

[261] الإدام: الطعام يؤكل مع الخبز (المعجم الوجيز)

على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل. قال وهل بلغك غير هذا؟ قال لا، فقال أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى علي شيئا من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه. فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب، فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك. ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي. فكانت شهوة ذوي الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا وآلافا من السنين، ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه. ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله. الطريق الثالث، أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد. ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم. الطريق الرابع، أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله، أو عن أعظم منه، أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره. وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدِب، قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشف لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين. فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد. فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه، قال الله تعالى:{يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}. فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم، وكلا وعد الله الحسنى. والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر، قال الله تعالى:{ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي

المأوى}، وقال تعالى:{أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى}، قيل نُزع منها محبة الشهوات. ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد: مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. وقال صلى الله عليه وسلم: "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل"[٢٦٢]. وقال سفيان الثوري ما عالجت شيئا أشد علي من نفسي، مرة لي ومرة علي. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت. قال متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا، وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه اصبري فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي. فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب، وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه. وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصرا من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه. فإذن لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تُمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق، فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة؛ ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل؛ وكذلك سائر الشهوات، لأن الذي يُشتهي به الحلال هو بعينه الذي يُشتهي الحرام، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام، فإن لم يعودها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، قال الله تعالى:{ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها}، وقال تعالى:{وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع}، وقال تعالى:{اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد}، الآية، وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة.

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى:{قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن

[262] حديث المجاهد من جاهد نفسه أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد.

اللغو معرضون}إلى قوله:{أولئك هم الوارثون}. وقال عز وجل:{التائبون العابدون الحامدون}إلى قوله:{وبشر المؤمنين}. وقال عز وجل:{إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} إلى قوله:{أولئك هم المؤمنون حقا}. وقال تعالى:{وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}، إلى آخر السورة. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال: "المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقال عليه السلام: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"، وقال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"، وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا"، وقال: "من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن"[٢٦٣]، وقال: "لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه"[٢٦٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لمسلم أن يروع مسلما"[٢٦٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه". وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا، لا لعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا، بشاشا هشاشا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق. وقال حاتم الأصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق راج كل أحد إلا الله، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد، وأول ما يُمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر بإعطائه. ويُحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوما إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال أنت عبد؟ قال نعم، فقال له أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي إنما أردت العمران، فقال هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد، فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له، فقالوا هذا إبراهيم بن

---

[263] حديث من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة.

[264] حديث لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة يؤذيه أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا.

[265] حديث لا يحل لمسلم أن يروع مسلما أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضعيف.

أدهم، فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه؛ فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد، فقال أنه لم يسألني عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لأني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة، قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه فلم أرد يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر. وقال يوسف بن أسباط علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف وحسن الأنصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه. فهذه نفوس قد ذُللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها، فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه. فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه. فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال الله عز وجل:{يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا}، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء، ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه. ويُحفظ الصبي عن الصبيان الذين عُوِّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يُسمعه ما يرغبه فيه. ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يُكرم عليه ويُجازى عليه بما يفرح به، ويُمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يُتغافل عنه ولا يُهتك ستره ولا يكاشفه، ولا يُظهر له أنه يُتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يُعاتب سرا ويُعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يُطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس. ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يُهوِّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح. وينبغي أن يُمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرك تعود فعل القبيح. ويُعود في بعض النهار المشي والحركة

والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل. ويُمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يُعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يُعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يصبص في انتظار لقمة والطمع فيها. وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان، بل على الأكابر أيضا. وينبغي أن يُعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلا على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل، ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يبتديء بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويُمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا. وينبغي أن يُعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويُعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع، ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان. ويعلم أن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممر لا دار مقر، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان. فإذا كان النشوء صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر، وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قبله عن قبول الحق، نبوة الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تُراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". قال سهل بن عبد الله التستري كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي يوما ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت كيف أذكره؟ قال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال قل في كل ليلة سبعة مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة فقلته، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا

والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوما يا سهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية.

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها، سالكا سبلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها. ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر. ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص. فإذن المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان. وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمُذكِرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه، والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها. فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم، وليس في علماء الدين من ينبههم. فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلق طريق الله تعالى عن السالكين فيه. ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول، وتعطلت الطرق لا محالة. فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم له شروطا لا بد من تقديمها في بداية الإرادة، وله معتصم لا بد من التمسك به، وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق. أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق، قال الله تعالى:{وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون}. والسد بين المريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والمعصية، وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل. وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه. وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله تصديق إيمان، ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى، وأعظم معبود له الهوى، حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدا. فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا، إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا. وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة، والخروج من المظالم، وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى، ورد المظالم وإرضاء الخصوم. فإن من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، فإن ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أولا، ثم الترقي منها إلى أسرار معانيه. فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أولا وآخرا، ثم الترقي إلى أغوارها

وأسرارها. فهذه الأربعة جُنَّة[٢٦٦] وحصن بها تدفع عنه القواطع، وتُمنع العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق، وإنما سلوكه بقطع العقبات، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا. وبعض تلك العقبات أعظم من بعض، والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل، وهي تلك الصفات، أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة وآثارها، أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصي، فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال. فرب شخص قد كُفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد كما سبق ذكره، فإذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة، شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الأوراد وثمرتها، أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره. فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قدر مضى من أحواله وأحوال غيره. فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان أيضا نقصانا، فليجتهد في دفع ذلك. ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة، جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها ما هي، وما معنى قولنا الله، ولأي معنى كان إلها وكان معبودا، ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر. وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك، وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعا أن الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى:{وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله أنه سميع عليم}، وقال تعالى:{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}. ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار، فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين، وإن أخطأ كان من الهالكين.

[266] ستر، وقاية (المعجم الوجيز)

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة. فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء. والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا}. وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه. فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل، بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتنا العبد إلى النجاة والخلاص. ونحن نذكر معانى الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني في الإخلاص وحقائقه.

والباب الثالث في الصدق وحقيقته.

الباب الأول في حقيقة النية ومعناها، وفيه: بيان فضيلة النية

وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية: قال الله تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه}، والمراد بتلك الإرادة هى النية. وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[٢٦٧]، وقال صلى الله عليه وسلم "أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته"[٢٦٨]. وقال تعالى: {إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما}، فجعل النية سبب التوفيق. وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى

[267] حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

[268] حديث أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله اعلم بنيته أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة.

قلوبكم وأعمالكم"[٢٦٩]، وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية. وقال صلى الله عليه وسلم: "الناس أربعة رجل أتاه الله عَز وجَل علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء"[٢٧٠]، ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه. وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال: "إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: حبسهم العذر فشركوا بحسن النية"[٢٧١]. وفي حديث ابن مسعود: (من هاجر يبتغى شيئا فهو له) فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس[٢٧٢]. وكذلك جاء في الخبر أن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار[٢٧٣] لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وفي حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم: "من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله ما نوى"[٢٧٤]. وروي في الإسرائيليات أن رجلا مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له أن الله تعالى قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به. وقد ورد في أخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة[٢٧٥] وفي حديث عبد الله بن عمرو: "من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها".[٢٧٦] وفي حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المُكره والأجير، فقال: "يحشرون على نياتهم".[٢٧٧] وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما يقتتل المقتتلون على النيات".[٢٧٨]

وقال عليه السلام: "إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصيبة، ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله، فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله"[٢٧٩]، وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يبعث كل عبد على ما مات عليه"[٢٨٠]، وفي حديث

---

269 حديث أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم.

270 حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث أبى كبشة الإنمارى بسند جيد.

271 حديث أنس أن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث أخرجه البخارى مختصرا وأبو داود.

272 حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس أخرجه الطبرانى بإسناد جيد.

273 حديث أن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار لم أجد له أصلا في الموصولات وإنما رواه أبو إسحق الفراوى في السنن من وجه مرسل.

274 حديث من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله ما نوى أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة.

275 حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم.

276 حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو.

277 حديث أم سلمة في الجيش الذى يخسف بهم يحشرون على نياتهم أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم.

278 أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبى هريرة إنما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه.

279 حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبى موسى من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله هي العليا فهو في سبيل الله.

280 حديث جابر يبعث كل عبد على ما مات عليه رواه مسلم.

الأحنف عن أبي بكرة: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه"[٢٨١] وفي حديث أبي هريرة: "من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن إدان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق"[٢٨٢] وقال صلى الله عليه وسلم: "من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة".[٢٨٣]

وأما الآثار فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى". وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز: "اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره". وقال بعض السلف: "رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية". وقال داود الطائي: "البَر همته التقوى، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة، وكذلك الجاهل بعكس ذلك". وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: أطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكذلك قال بعض السلف: "وإن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك". وقال عيسى عليه السلام: "طوبي لعين نامت ولا تهم بمعصية، وانتبهت إلى غير إثم". وقال أبو هريرة: "يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم". وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم}، يبكي ويرددها ويقول: **إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا**. وقال الحسن: إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: "مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل". فإذن عماد الأعمال بالنيات، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات على متوارده معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران، علم وعمل. العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل، أعنى كل حركة وسكون، اختيارى فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة، لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه، فلابد وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة، ومعنى الإرادة إنبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض، إما في الحال أو فى المآل، فقد خُلِق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها. فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا، وهى الحواس الظاهرة والباطنة، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذا المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة إليه، فخلق الله تعالى

[281] حديث الأحنف عن أبي بكرة إذا إلتقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار متفق عليه.

[282] حديث أبي هريرة من تزوج امراة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زأن أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق.

[283] حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلا.

له الميل والرغبة والإرادة، وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه، ثم ذلك لايكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه، فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يُفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه، انبعثت الإرادة وتحقق الميل. فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء، لأن القدرة خادمة للإرادة، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهى الإرادة وإنبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب، وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوى، والإنبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل. إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما. أما الأول فهو أن ينفرد الباعث الواحد بتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع، فإنه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه فإنتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال نيته للفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته. وأما الثاني فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد، ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد، ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غنى فيرغب فى قضاء حاجته وفقير أجنبى فيرغب أيضا فيه، وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مرافقة للبواعث. والثالث أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوى مجموعهما على إنهاض القدرة، ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفاإن على حمل مالا ينفرد أحدهما به، ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه، ويقصده الأجنبى الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون الإنبعاث داعيته المجموع الباعثين وهو القرابة والفقر، وكذلك الرجل يتصدق بين يدى الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة. والرابع أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما أنضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل، ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه، ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية، ولنسم هذا الجنس المعاونة. فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الإخلاص، والغرض الآن بيان

أقسام النيات فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه، ولذلك قيل إنما الاعمال بالنيات لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع.

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله[٢٨٤]

اعلم أنه قد يُظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل. وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر، وقد يُظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل، والأعمال لا تدوم، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك. فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة، والأعمال تدوم، والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله. وقد يقال أن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهو كذلك، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا، والنية بمجردها خير، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات. ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أى لكل واحد منهما أثر في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته. والغرض أن للعبد اختيارا في النية وفى العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما. فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه، ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له، فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة. ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا، فإن اتبع بمقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال. وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الآخرة، والشرور كلها هى التى تراد بها الدنيا لا الآخرة، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك

[284] حديث نية المؤمن خير من عمله أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف.

إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى بالجوارح، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: "إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد"[٢٨٥]، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له. فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث أنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث أنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإن من يجد في نفسه تواضعا فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه. ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا، فيقال **العبادة بغير نية باطلة، وهذا معناه إذا فُعل عن غفلة**، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوبة تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل، وبهذا أيضا يُعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة"، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى. وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فـ:{لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم}، والتقوى ههنا صفة القلب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا" كما تقدم ذكره، لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن إنقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يُتصور إحصاؤه واستقصاؤه، فهي ثلاثة أقسام معاص وطاعات ومباحات. القسم الأول المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات، فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيرا من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام،

[285] حديث أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم.

وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خير؟ هيهات، بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: "ما عُصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل". قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل، قال نعم: "الجهل بالجهل"، وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم. فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم. وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم، العلم بالعلم، كما أن رأس الجهل، الجهل بالجهل. فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم. والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم، وقد قال الله سبحانه: {فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه".[٢٨٦] ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرى الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألفى سنة. وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول إنما الأعمال بالنيات، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا منى، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. فإذن قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا، نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

القسم الثاني: الطاعات

وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن يُنوى بها خيرات كثيرة

[286] حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث أخرجه الطبرانى في الأوسط وابن السنى وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل.

فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها[٢٨٧] كما ورد به الخبر، ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين: أولها أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره".[٢٨٨] وثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة إنتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا. وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم، وهو نوع ترهب. ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد. وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى.[٢٨٩] وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسئ في صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته. وسابعها أن يستفيد أخا في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله. وثامنها أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: "من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخا مستفادا في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علما مستظرفا، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء". فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات. إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث المباحات

وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ويُنال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة. ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات، فكل ذلك يُسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله، وما الذي قصد به. هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "حلالها حساب وحرامها عقاب"[٢٩٠]، وفي خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، فاستعمال الطِيب مباح ولكن لا بد فيه من نية. فإن قلت فما الذي يمكن أن يُنوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس، وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أن من

---

[287] حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم.

[288] حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره أخرجه ابن حبتن في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة.

[289] حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجه وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح.

[290] حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم.

يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول، وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه، "ومن نوقش الحساب عُذب"، ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن يُنقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة[٢٩١]، وينوي بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله، فلا يُرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية، وقال الله تعالى:{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم}، أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه، وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات، وإن ذُكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس، وليس ذلك من النية في شيء. والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فَقِس بهذا الواحد ما عداه. ولهذا قال بعض العارفين من السلف إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى فى أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يُقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كان مطيعا بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة. ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب. ففي الخبر أن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة، فيتعجب ويقول يا رب هذه أعمال ما عملتها قط، فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك[٢٩٢]. وفي الخبر أن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة، فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا، فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقي له حسنة، فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون، فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيآتهم ثم

---

[291] حديث أن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة الحديث.

[292] حديث أن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصرا أن العبد ليلقي كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة.

صكوا له صكا إلى النار[٢٩٣]. وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}. وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب، فتربته فهتف بي هاتف سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غدا من سوء الحساب. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله، فيقول والله ما أعرفك، فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطى وأخذت خيطا من ثوبى. فهذا وأمثاله من الأخبار **قطّع قلوب الخائفين**، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يُدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذى تنال به من الدنيا وما الذى يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة، فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك، وإلا فأمسك، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وإمتناعك، فإن ترْك الفعل فعل ولا بد له من نيه صحيحه، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يُطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الإغترار. فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لِما علِموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض. وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فإن لم تحضره النية توقف فإن النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو آكل لله، ويظن ذلك نية وهيهات، فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية إنبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلا وإما آجلا. والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبى، فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشىء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لايقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان

[293] حديث أن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف.

أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت. والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

ونيات الناس في الطاعات أقسام، إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته وجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة، لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله، وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه لجماله لما له وجلاله. وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة، فإنهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم، فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين. والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة، لأن الأعمال بالنيات، وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل، له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه: روحوا القلوب فإنها إذا أُكرهت عميت.

الباب الثاني فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص: قال الله تعالى:{وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين}، وقال:{إلا لله الدين الخالص}، وقال تعالى:{إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله}، وقال تعالى:{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله"[٢٩٤]. وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة

[294] حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله أخرجه الترمذى وصححه من حديث النعمان بن بشير.

بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم"[٢٩٥]. وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى"[٢٩٦]. وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: "لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل"[٢٩٧]. وقال عليه السلام: "ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[٢٩٨]. وقال عليه الصلاة والسلام: "أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك، ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت، فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك، ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت، فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قُتلت، فيقول الله كذبت، وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك. قال أبو هريرة ثم خبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذى وقال: يا أبا هريرة أولئك أول خلق تُسعر نار جهنم بهم يوم القيامة"[٢٩٩]، فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله إذ قال:{من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها}،الآية.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا، ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا، قال الله تعالى:{من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين}، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به. والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى. فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق. ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك. وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج

---

295 حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم.

296 حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى رويناه في جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث على بن أبي طالب بسند ضعيف.

297 حديث أنه قال لمعاذ اخلص العمل يجزك منه القليل أخرجه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع.

298 حديث ما من عبد يخلص لله أربعين يوما أخرجه ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات عن أبى موسى وقد تقدم.

299 حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث قد تقدم.

بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو له في منزله، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى، وتطرق إليه الشرك. وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحده خالصه لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب. بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفي شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب، إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية. وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره.

وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون في باعث سواه، وهذا لا يُتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار. وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة، وبالجملة غير الله، فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا. فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذا ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها . وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى:{وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا}، وبقوله تعالى:{قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا}. وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لإنصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود. ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعوذ عليه في الآخرة من إنفراده. فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى:{إلا عبادك منهم المخلصين}. فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى: "الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص". وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات والخالص ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحد. وقال سهل رحمه الله تعالى: "الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة"، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: "الإخلاص صدق النية مع الله تعالى". وقيل لسهل أى شيء أشد على النفس فقال الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب، وقال رويم: "الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين"، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا.

والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين، وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط. وقد قيل الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق، وهذا أجمع للمقاصد. وقال المحاسبى الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفى الرياء. وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: "الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد"، وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص. وقيل الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل، والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة. وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم إذ سئل عن الإخلاص فقال: "أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أُمرت"[300] أى لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلى وبعضها خفى، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوى مع الخفاء، ولا يُفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا، فنقول الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا في صلاته، ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك، فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته. وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يُؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى

---

[300] حديث سئل عن الإخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لى في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم.

بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه. فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به.

الدرجة الثالثه: وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه في الملأ، ويصلى في الملأ أيضا كذلك، فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكان نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس، ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملأ، وهيهات. بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعا.

الدرجة الرابعة: وهى أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك، فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره. ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات، حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصه وللنفس فيها حظ خفي لإرتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك، ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ويكون إنبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا، أم يقتضي عقابا، أم لا يقتضي شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه. أما الذي لم يُرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له[٣٠١]، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى

[301] الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض رواه أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله لا أجر له الحديث وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر

قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبه التقرب. وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى:{فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، ولقوله تعالى:{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها}، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة. فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب[٣٠٢] الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ، فقد روى طاوس وغيره من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[٣٠٣] وقد قصد الأجر والحمد جميعا. وروى معاذ عن صلى الله عليه وسلم النبي أنه قال "أدنى الرياء شرك"[٣٠٤]. وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له"[٣٠٥]. وروى أبو موسى أن أعرابيا أتى رسول صلى الله عليه وسلم الله فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[٣٠٦]. وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له"[٣٠٧]. فنقول هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا، كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه. وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها. وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يُرجى عليه ثواب. ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا، ولذلك قال تعالى:{فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}، أي لا يرجي اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط. وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط. فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد

والذكر ماله فقال لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجرأن أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

[302] شاب، يشوب، شوبا: خالطه مايعكر صفاءه (المعجم العربي الأساسي)

[303] حديث طاوس وعدة من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت فمن كان يرجو لقاء ربه أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

[304] حديث معاذ أدنى الرياء شرك أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم.

[305] حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله.

[306] حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تقدم فيه.

[307] حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول، خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها. وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغى أن يكون كل ذي بصيرة. ومع هذا فلا ينبغي أن يُترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما تُرك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا. وقد حُكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز في أعماله، فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوما، يريد إخلاص الحركات، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذر عليه قضاء الحوائج، واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها. فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل. وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخَلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق: قال الله تعالى:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[٣٠٨]. ويكفي في فضيلة الصدق أن الصِّديق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال:{واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا}، وقال:{واذكر في الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا}، وقال تعالى:{واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا}. وقال ابن عباس: "أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر". وقال أبو سليمان: "اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك". وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقا. فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكناني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول". وقال الثوري في قوله تعالى:{ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة}، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: "يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته". وقال بعضهم: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال أبو بكر الوراق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى، والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال: قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل، فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال: "قول الحق والعمل بالصدق"[٣٠٩]. وعن الجنيد في قوله تعالى:{ليسأل الصادقين عن صدقهم} قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

---

[308] حديث أن الصدق يهدي الى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

[309] حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضا على درجات، فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول صدق اللسان: وذلك لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار، وينبه عليه. والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخِلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق. ولكن لهذا الصدق كمالان، أحدهما الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب. إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظَلَمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك. فمن اضطُر إلى شيء من ذلك فصدِقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفهِما غير ما هو عليه. لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا يُنظر إلى صورته بل إلى معناه. نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى[310] بغيره[311] وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا"[312]، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق ههنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير. فمهما وضح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة. والكمال الثاني أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله:{وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض}، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب، وكقوله:{إياك نعبد}، وقوله: "أنا عبد الله"، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله لعجز تحقيقه، فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا لدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له، كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: "تعس عبد الدنيا، وتعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة"[313]، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له. وإنما العبد الحق لله عز وجل من أُعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه

---

[310] أراده وأظهر غيره (المعجم الوجيز)

[311] حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

[312] حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم.

[313] حديث تعس عبد الدينار الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

وظاهره بطاعته، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تُجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية، وهو أن يُعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عُتق عن غير الله فصار حرا، ثم عاد وعُتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه، إن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه درجة الصديقين. وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا، كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم، فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى:{والله يشهد أن المنافقين لكاذبون وقد قالوا إنك لرسول الله}، وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال، إذ صاحبه يُظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول، فكُذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به. فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية، وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا.

الصدق الثالث صدق العزم: فإن الإنسان قد يُقدِّم العزم على العمل، فيقول في نفسه إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهى عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة، كما يقال لفلان شهوة صادقة، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات.

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة. فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه. ولذلك قال الله تعالى:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}، فقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع. قال: فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال واها لريح الجنة أنى أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا

بثيابه، فنزلت هذه الآية[٣١٤]. ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا، وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:{رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر}[٣١٥]، وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الشهداء أربعة، رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قُتل، فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا"، ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته، قال الراوى فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، "ورجل جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عاثر فقتله فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قُتل فذاك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة"[٣١٦]. وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن فبخلوا به، فنزلت:{ومنهم من عاهد الله لئن آتأنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين}، وقال بعضهم إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به، فقال تعالى:{ومنهم من عاهد الله لئن آتأنا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون}، فجعل العزم عهدا، وجعل الخِلف فيه كذبا، والوفاء به صدقا. وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث، فإن الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب.

الصدق الخامس في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء، لأن المرائى هو الذي يقصد ذلك. ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائمابين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال. وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا إياهم. ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره. إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أجعل سريرتي خيرا من علانيتي وأجعل علانيتي صالحة"[٣١٧]. وقال أبو يعقوب النهر جوري الصدق موافقة الحق في السر والعلانية، فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس، وهو أعلى الدرجات وأعزها، الصدق في مقامات الدين: كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات

---

[314] حديث أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربةوطعنة ونزول رجال صدقوا الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى في الكبرى وهو عند البخارى مختصرا أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر.

[315] حديث وقف على مصعبين عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا.

[316] حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن.

[317] حديث اللهم أجعل سريرتي خيرامن علأنيتي الحديث تقدم ولم أجده.

وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها. وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقا فيه، كما يقال فلان صدق القتال، ويقال هذا هو الخوف الصادق، وقال الله تعالى:{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا} إلى قوله:{أولئك هم الصادقون}، وقال تعالى:{ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر} إلى قوله:{أولئك الذين صدقوا}. وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية، فقيل له سألناك عن الإيمان، فقال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية[٣١٨]. ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ،كل ذلك خوفا من درك المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه. فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها. ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز. ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا. قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يُفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق. فقال ابن المسيب ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبى صلى الله عليه وسلم فهذا صدق في هذه الأمور. وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه. والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني. نعم قد قال أبو بكر الوراق: الصدق ثلاثة، صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين، قال الله تعالى:{والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون}، وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام. وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى. فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها.

[318] حديث أبى ذر سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر إلى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد بن نصر المروزى في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له اسنادا.

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطول بالعفو عن من معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت، وتنظر فيما قدمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت. فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت. فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت. فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء. والصلاة والسلام علي محمد سيد الأنبياء، وعلى آله سادة الأصفياء، وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد فقد قال الله تعالى:{ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين}، وقال تعالى:{ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا}، وقال تعالى:{يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد}، وقال تعالى:{يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}، وقال تعالى:{ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}، وقال تعالى:{يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه}، وقال تعالى:{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}، فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته. فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال عز من قائل:{يا أيها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا}، فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها، وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة. فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

المقام الاول من المرابطة: المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح. وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالى: {قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها}. وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله. وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا، فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويحزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق؛ ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها. فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا. فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد. فإنقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل. فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطه النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلى وأنعم على به، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنا. وقد قال بعضهم هب أن المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين، أشار به إلى الغبن والحسرة. وقال الله تعالى: {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن}. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة، وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، فيوصيها بحفظها عن معاصيها. أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام. ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خُلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة. وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمة واللعن، والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام، فهو

بصدد ذلك كله مع أنه خُلِق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر، ونظره وعبره وصمته فكر. هكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي. ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين}. فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير، قال الله تعالى:{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}. وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا}، وقال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا}، وقال تعالى:{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه}، ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: "إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته، فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه". وقال بعض الحكماء إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاءالشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة. وقال لقمان إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة. وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، دان نفسه أي حاسبها، ويوم الدين يوم الحساب، وقوله تعالى:{أئنا لمدينون}، أي لمحاسبون. وقال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر. وكتب إلى أبى موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله؟ قال ويل لديان الأرض من ديان السماء، فعلاه بالدرة وقال إلا من حاسب نفسه، فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه، وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل، إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت، ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة، إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظاتها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها. أما الفضيلة فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه". وقال عليه السلام: "أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وقد قال تعالى:{أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}، وقال تعالى:{ألم يعلم بأن الله يرى}، وقال الله تعالى:{إن الله كان عليكم رقيبا}، وقال تعالى:{والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم

قائمون}. وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيره، فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الله تعالى. وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وسئل بعضهم عن قوله تعالى:{رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه}، فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس، استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب. وقد قيل: إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت، ولكن قل علي رقيب، ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب، ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا إذًا للناظرين قريب. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا[٣١٩] في بعض الطريق، فإنحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال إني مملوك، فقال قل لسيدك أكلها الذئب، قال فأين الله؟ قال فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه. فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال أنه يراقب فلانا ويراعي جانبه. ويُعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت. وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقينا، أعني أنها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته، فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب، كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه. والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين. الدرجة الأولى، مراقبة المقربين من الصديقين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا. وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد. وهذا هو الذي صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم... فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان. فمتى لم يعرف

[319] أعرس المسافرون: نزلوا آخر الليل للراحة (المعجم الوجيز)

نفسه وربه وعدوة إبليس، ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يُعذر، هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه، فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه، أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به. فإن الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تُدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت. فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر، فإن جميع ما وراءه يتبعه. النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويُحسن النية في إتمامه، ويُكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه؛ وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها. ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه، إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته، كما قال تعالى:{ولا تنس نصيبك من الدنيا}، وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث، ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى، ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون إبن وقته كأنه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: "لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم"[٣٢٠]. وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات

[320] حديث أبي ذر لا يكون المؤمن ظاعنا إلا في ثلاث تزود لمعاد الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنه في صحف موسى.

ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب[٣٢١]، فإن في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات. ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح، والناس فيه أقسام قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه، وهذا مقام ذوى الألباب؛ وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين. وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى، فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب أن فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جدا. فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل، ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها. أما الفضيلة فقد قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد}، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصنى، فقال أمستوص أنت؟ فقال نعم. قال: "إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه". وقال تعالى:{وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون}، والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقال تعالى:{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}. وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب، فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره. وقال الحسن: "المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبه"، ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا، والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله. وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط: عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك. وقال إبراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدين؟ فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا. قلت فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكانى. وحكى صاحب للأحنف ابن قيس قال كنت أصحبه

[321] حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجى بها ربه الحديث وهي بقية حديث أبى ذر الذى قبله.

فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه ياحنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يُغبن في شيء منها، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة مُلبِّسة مكارة، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لِم سكت، وعن سكونه لِم سكن. فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه. ثم النفس غريم يمكن أن يُستوفى منه الديون، إما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلابعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة. المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها، مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفه معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغى أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها. فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد رُوي عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست.

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفدهن والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده. أما بعد فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد. وقد كان الذي خفنا أن يكون فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم. فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة، إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها، مجددا لهذه السنة الداثرة، ناهضا بأعبائها ومتشمرا في إحيائها، كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها. وها نحن نشرح علمه في أربعة أبواب: الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته، الباب الثاني في أركانه وشروطه، الباب الثالث في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في العادات، الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه، الآيات والأخبار والآثار. أما الآيات فقوله تعالى:{ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}. ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى:{ولتكن} أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، إذ حصر وقال:{وأولئك هم المفلحون}. وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال:{ولتكن منكم أمة}. فإذا، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة. وقال تعالى:{ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين}، فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله

واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال تعالى:{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة}، فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية. وقال تعالى:{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}، وهذا غاية التشديد، إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر. وقال عز وجل:{كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس. وقال تعالى:{فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون}، فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضا. وقال تعالى:{الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر}، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين. وقال تعالى:{وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}، وهو أمر جزم، ومعنى التعاون الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان. وقال تعالى:{لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون}، فبين أنهم أثموا بترك النهي. وقال تعالى:{فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض}، الآية، فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد. وقال تعالى:{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}، وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين. وقال تعالى:{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما}، وقال تعالى:{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}، الآية، والإصلاح نهي عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يُفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله، فقال:{فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله}، وذلك هو النهي عن المنكر. وأما الأخبار، فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: "أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده". وروى عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى:{لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}، فقال: "يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك العوام. إن من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم" قيل بل منهم يا رسول الله، قال: "لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعوانا ولا يجدون عليه أعوانا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم"[٣٢٢]. وقال رسول الله

[322] حديث لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم قال هذا حديث حسن معناه تسقط مهابتهم من أعين الاشرار فلا يخافونهم. وقال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم حديث يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول

صلى الله عليه وسلم: "إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها. قالوا وما حق الطريق؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" (متفق عليه). وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تُنصرون، وتستغفرون فلا يغفر لكم. وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه. وقال بلال بن سعد: إن المعصية إذا أُخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أُعلنت ولم تُغَير أضرت بالعامة. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال، ثم قعد عنهم فقيل له لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم. فقال أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي، وإن سكت رهبت أن آثم. وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشهد منه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم. فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نُكس فجُعل أعلاه أسفله. وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أُمر به أو نُهي عنه، وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان، فهو ممن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه. فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به. فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه.

الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة: المحتسب، والمحتسب عليه، والمحتسب فيه، ونفس الاحتساب. فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه. الركن الأول: المحتسب، وله شروط وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا، فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة. فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه إطراح ما أطرحناه. أما الشرط الأول وهو التكليف، فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل، حتى أن الصبي المراهق للبلوغ المميز وإن لم يكن مكلفا فله إنكار المنكر، وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي، وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ولم يكن لأحد منعه من حيث أنه ليس بمكلف، فإن هذه قربة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات، وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف، ولذلك أثبتناه للعبد وآحاد الرعية. نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة، ولكنها تُستفاد بمجرد الإيمان، كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته، فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به، فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر. وأما الشرط الثاني وهو الإيمان، فلا يخفى وجه اشتراطه، لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدو له. وأما

لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلفظ مروا وانهوا وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين.

الشرط الثالث وهو العدالة، فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله، مثل قوله تعالى:{أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم}، وقوله تعالى:{كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}، وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مررت ليلة أسرى بي بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه". وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للإهتداء، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح. فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب، وبرهانه هو أن نقول هل يُشترط في الإحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها؟ فإن شُرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب، إذ لا عصمة للصحابة فضلا عمن دونهم، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء. ونحن نقول من علم أن قوله لا يُقبل في الحسبة لعِلم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ، إذ لا فائدة في وعظه، فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام. فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر، وتمام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قُهِر بالحجة، إذ يتوجه عليه أن يقال له فأنت لم تقدم عليه فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة. فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه، لأنه لا يتعظ. وإذا لم يكن عليه ذلك وعلم أنه يفضى إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار، فنقول ليس له ذلك أيضا. فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه، وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك، فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمور وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة. فإن قيل فليجز للكافر الذمي أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزني، لأن قوله لا تزن حق في نفسه فمحال أن يكون حراما عليه بل ينبغي أن يكون مباحا أو واجبا، قلنا الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه، فيُمنع من حيث أنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، وأما مجرد قوله لا تزن فليس بمحرم عليه من حيث أنه نهي عن الزنا ولكن من حيث أنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم وفيه إذلال للمحتكم عليه، والفاسق يستحق الإذلال، ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالذل منه، فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة. وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله لا تزن من حيث أنه نهى، بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه. الشرط الرابع، كونه مأذونا من جهة الإمام والوالي، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصى إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له. فإن قيل في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر، فنقول أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض، كعز التعليم والتعريف. إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والايجاب لمن هو جاهل ومُقدِم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عز الإرشاد، وعلى المعرف ذلك التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين، وكذلك النهي. وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب كما سيأتي؛

أولها التعريف، والثاني الوعظ بالكلام اللطيف، والثالث السب والتعنيف، ولست أعنى بالسب الفحش، بل أن يقول يا جاهل يا أحمق ألا تخاف الله وما يجري هذا المجرى، والرابع المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي وإراقة الخمر واختطاف الثوب الحرير من لابسه واستلاب الثوب المغصوب منه ورده على صاحبه، والخامس التخويف والتهديد بالضرب ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف، فإن سلب لسانه غير ممكن، ولكن يُحمل على اختيار السكوت بالضرب، وهذا قد يُحوِج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجر ذلك إلى قتال. وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة. أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام، وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو كلام صدق، والصدق مستحق، بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر كما ورد في الحديث، فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه، وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمور فإنه تعاطي ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام، وأما جمع الاعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر. واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالي راضيا به فذاك، وإن كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه، فكيف يُحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه. ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة، كما روي أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد، فقال له رجل إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال له مروان اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فلينكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان", فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها، فكيف يُحتاج إلى إذنهم. وروى أن المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلببه بردائه ثم هزه وقال له: انظر ما تصنع من جعلك بهذا البيت، أحق ممن أتاه من البعد حتى إذا صار عنده حِلت بينه وبينه، وقد قال الله تعالى: {سواء العاكف فيه والباد}، من جعل لك هذا؟ فنظر في وجهه وكان يعرفه لأنه من مواليهم، فقال" أعبد الله ابن مرزوق؟ قال نعم. فأُخذ فجيء به إلى بغداد، فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة، فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فرسا عضوضا سيِء الخلق ليعقره الفرس، فلين الله تعالى له الفرس، قال: ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه وأخذ المهدي المفتاح عنده، فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل فأوذن به المهدي، فقال له: من أخرجك؟ فقال الذي حبسني. فضج المهدي وصاح وقال ما تخاف أن أقتلك؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول لو كنت تملك حياة أو موتا، فما زال محبوسا حتى مات المهدي، ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة، قال: وكان قد جعل على نفسه نذرا إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها... فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذه الدقائق نقول العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد، فالعامي إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه. وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالي إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلا لها لقصور معرفته أو قصور ديانته فيؤدي ذلك إلى وجوه من الخلل. فإن قيل وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تفيد حسبته فلو كان بدل العلم ظن فما حكمه؟ قلنا الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم، وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم، إذ يُرجح العلم اليقيني على الظن، ويفرق بين العلم

والظن في مواضع أخرى، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعا أنه لا يفيد. فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد، وهو مع ذلك لا يتوقع مكروها، فقد اختلفوا في وجوبه، والأظهر وجوبه، إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة. وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال، ونحن إنما نستثني عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه، إما بالإجماع أو بقياس ظاهر، وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه، فأما إذا لم يكن يأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب. فإذا المعصية لها ثلاثة أحوال إحداها أن تكون متصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد، الثانية أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها وذلك يثبت للآحاد والرعية، الثالثة أن يكون المنكر متوقعا كالذي يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للأحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية عُلمت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدي إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية وإن كان مقصد العاصي وراءه، كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية، وتحصيل مظنة المعصية معصية، ونعني بالمظنة ما يتعرض الإنسان به لوقوع المعصية غالبا بحيث لا يقدر على الانكفاف عنها. الركن الثاني للحسبة ما فيه الحسبة، وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها. الأول كونه منكرا، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنونا يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه، وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس، بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لا عاصي بها محال، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية. وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة، فلا تختص الحسبة بالكبائر بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر، ويجب النهي عنها. الشرط الثاني، أن يكون موجودا في الحال وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضا فإن فيه إساءة ظن بالمسلم، وربما صدق في قوله وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق. وليُتنبه للدقيقة التي ذكرناها، وهو أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة، وكذا الوقوف على باب حمام النساء، وما يجري مجراه. الشرط الثالث، أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس، فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يُتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه وقصة عمر وعبد الرحمن بن عوف فيه مشهورة، وكذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه. فقال وما هي؟ فقال قد قال تعالى: {ولا تجسسوا} وقد تجسست، وقال تعالى: {وأتوا البيوت من أبوابها} وقد تسورت من

السطح، وقال:{لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها} وما سلمت، فتركه عمر وشرط عليه التوبة. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه، فأشار علي رضي الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد. فإن قلت فما حد الظهور والاستتار؟ فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي، وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع، فهذا إظهار موجب للحسبة. وقد تستر قارورة الخمر في الكم وتحت الذيل، وكذلك الملاهي، فإذا رؤي فاسق وتحت ذيله شيء لم يُجز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة، فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره، فلا يجوز أن يُستدل بإخفائه، وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر. وقد أُمرنا بأن نستر ما ستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته، والإبداء له درجات فتارة يبدو لنا بحاسة السمع وتارة بحاسة الشم وتارة بحاسة البصر، وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم وهذه الحواس أيضا تفيد العلم. الشرط الرابع، أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد. فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوي الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد. نعم لو رأى الشافعي شافعيا يشرب النبيذ وينكح بلا ولي ويطأ زوجته فهذا في محل النظر، والأظهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره، ولا أن الذي أدى اجتهاده في التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقى من المذاهب أطيبها عنده. الركن الثالث المحتسب عليه، وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرا، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنسانا، ولا يشترط كونه مكلفا إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر مُنع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزا إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة مُنع منه. نعم من الأفعال ما لا يكون منكرا في حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل، فإن ذلك أيضا مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح، وغرضنا الإشارة إلى الصفة التي بها يتهيأ توجه أصل الإنكار عليه، لا ما بها يتهيأ للتفاصيل... الركن الرابع نفس الاحتساب، وله درجات وآداب. أما الدرجات فأولها التعرف، ثم التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم السب والتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه، ثم شهر السلاح، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود. أما الدرجة الأولى وهي التعرف، ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر، وذلك منهي عنه وهو التجسس الذي ذكرناه، فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره. نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره، أو بأن في داره خمرا أعده للشرب، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزم الاستئذان، ويكون تخطى ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر. وبالجملة كل من تقبل روايته لا شهادته ففي جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال، والأولى أن يُمتنع لأن له حقا في أن لا يُتخطى داره بغير إذنه، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين. الدرجة الثانية

التعريف، فإن المنكر قد يقدم عليه المُقدِم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف. وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور، لا سيما بالشرع. ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نُبه على الخطأ والجهل، وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله. والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية، لأن الجهل قُبح في صورة النفس وسواد في وجهه، وصاحبه ملوم عليه. وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن، ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله ولا في اختياره إزالته وتحسينه، والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم. فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره. الدرجة الثالثة النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى، وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتُحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين، وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل يُنظر إليه نظر المترحَم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة. وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة، وهي أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل، فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه. وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة، وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عرفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين، أحدهما من جهة العلم والآخر من جهة دالة الاحتكام والسلطنة، وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه. الدرجة الرابعة السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وذلك يُعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: {أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون}. ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعد من جملة الفحش ،كقوله يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله، وكقوله يا غبي وما يجري هذا المجرى. فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى، بل كل من ليس بكيس فهو أحمق، والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله". ولهذه الرتبة أدبان، أحدهما أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف، والثاني أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة. فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته، وإن علم أنه لو تكلم ضُرب، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب، لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له. الدرجة الخامسة التغيير باليد، وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجري مجراه. ويُتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض، فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس

العاصي وجوارحه الباطنة. وفي هذه الدرجة أدبان، أحدهما أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لا حجر عليه في فعله. الثاني أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج ولا برجله إذا قدر على جره بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر. وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداء، وفي إراقة الخمور يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك، ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرءوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها فهذا عذر، وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها، فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان. فإن قلت فهلا جاز الكسر لأجل الزجر وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر، فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة أو زجر عن لاحق وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية. فإن قلت فليجز للسلطان زجر الناس عن المعاصي بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي، فاعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجا عن سنن المصالح، ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها، وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها. الدرجة السادسة التهديد والتخويف، كقوله دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك أو لأضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه، وهذا ينبغي أن يُقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه. والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب. نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه، وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة في مثل ذلك معتادة، وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين وذلك مما قد رخص فيه للحاجة وهذا في معناه، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص. الدرجة السابعة مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف. وكذلك المحتسب يراعي التدريج، فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة، كما لو قبض فاسق مثلا على امرأة أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع، فيأخذ قوسه ويقول له خل عنها أو لأرمينك إن لم تخل عنها، فله أن يرمي، وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعي فيه التدريج، وكذلك يسل سيفه ويقول اترك هذا المنكر أو لأضربنك فكل ذلك دفع للمنكر، ودفعه واجب بكل ممكن. فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق.

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات ونذكر الآن جملها ومصادرها. فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب العلم والورع وحسن الخلق. أما العلم فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها، ليقتصر على حد الشرع فيه. والورع ليردعه عن مخالفة معلومة، فما كل من علم عمِل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولا، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جراءة عليه. وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه. والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والإسم. فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات، وإن فُقدت لم يندفع المنكر، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها, ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه"[٣٢٣]، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت. وقد قيل: لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله، من ذم شيئا وأتى مثله فإنما يزرى على عقله. ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس. وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن إراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى. فإذن من آداب الحسبة توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف فقال حاكيا عن لقمان:{يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك}. ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة، فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة، ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالثناء عليه مطلقة لم تتيسر له الحسبة. قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني كيف منزلتك بين قومك؟ قال حسنة. قال إن التوراة تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه، فقال أبو مسلم صدقت التوراة وكذب أبو مسلم. ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذا وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق، فقال تعالى:{فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى}. فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم، فقد روى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله تأذن لي في الزنا فصاح الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قربوه، أدن، فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتحبه لأمك؟ فقال لا جعلني الله

[323] حديث لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه الحديث لم أجده هكذا وللبيهقي في الشعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف

فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابنتك؟ قال: لا جعلني الله فداك. قال: كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك[٣٢٤].

الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليُستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها، فمن ذلك منكرات المساجد. اعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة، فإذا قلنا هذا منكر مكروه فاعلم أن المنع منه مستحب، والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه، فيجب ذكره له، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه. وإذا قلنا منكر محظور أو قلنا منكر مطلقا فنريد به المحظور، ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا. فما يشاهد كثيرا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة إذ لا ينفع النهي معه ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه، هكذا ورد به الأثر وفي الخبر ما يدل عليه، وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عمى، فكل ذلك تجب الحسبة فيه، ومنها قراءة القرآن باللحن يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح. فإن كان المعتكف في المسجد يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشتغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه، لأن هذا فرض وهي قربة تتعدى فائدتها، فهي أوشك من نافلة تقتصر عليه فائدتها. والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر ما يقرؤه لحنا فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها، وإن كان الأكثر صحيحا وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ولكن ينبغي أن يخفض به الصوت حتى لا يسمع غيره، ولمنعه سرا منه أيضا وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأسا والله أعلم. ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات، فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها، فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها. فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف... ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح. ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ المسجد ملعبا وصار ذلك معتادا، فيجب المنع منه. فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره، منكرات الشوارع فمن المنكرات المعتادة فيها وضع الاسطوانات وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة وغرس الأشجار وإخراج الرواشن والأجنحة ووضع الخشب وأحمال

[324] حديث أبي أمامة أن شابا قال يا رسول الله ائذن لي في الزنا فصاح الناس به الحديث رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحد لا جعلني الله فداك وهو صلى الله عليه وسلم يقول كذلك الناس لا يحبونه وقالا جميعا في حديثهما أعني ابن عوف والراوي الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعني من الزنا.

الحبوب والأطعمة على الطرق، فكل ذلك منكر **إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة**، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه. نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه؛ وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينحس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة، والمرعي هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات، ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر، إن أمكن شدها وضمها بحيث لا تمزق أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه. **وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات**. وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن. **فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر**، ولكن ليس يختص به شخص معين إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق إن كان من المطر، فذلك حسبة عامة، فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط. وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه، وإن كان لا يؤذي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق فكلبه أولى بالمنع. منكرات الحمامات منها الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر، فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان، ومنها كشف العورات والنظر إليها، ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز فهذا مكروه إن كان مع حائل، ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة. نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف، ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان والتزين بالحلق غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي المخانق والأسورة كفاية عنه فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والمنع منه واجب. منها المنكرات العامة اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي، ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين، وإلا عم الحرج الكافة أجمعين، أما العالم فلتقصيره في الخروج وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم. وكل عامي عرف

شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم. ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها. وللإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي، وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت بل يلزمه الخروج. فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح. فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ثم إلى أهل محلته ثم إلى أهل بلده، وهكذا إلى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا حُرِج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه. وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه.

الباب الرابع في أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف وثانيه والوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة، والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما التعريف والوعظ. وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر. وأما التخشين في القول كقوله يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك" ، وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار قدموا على ذلك موطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم. فمنها ما روي من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء، وكان ابن أبي شميلة يوصف بالعقل والأدب فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك تكلم، قال بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله، فبكى عبد الملك ثم قال يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط

نفسه. فبكى عبد الملك ثم قال لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عيني ما عشت. ويُروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلى إلي ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه ونلنا منه مقاربة له وفرقا من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه، فقال يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا؟ قال ما عسيت أن أقول؟ قال أخبرني برأيك في أبي تراب. قال سمعت الله جل ذكره يقول:{وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم}، فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها، وأقول إن كانت لعلى هناة فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا. فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره. فقال إليك عني يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة، أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سُئلت فصدقت أو سكت فسلِمت. قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة. قال وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم. قال نعم. قال ما حملك على هذا؟ قال ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك. وحكي أن حطيطا الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيط، قال: نعم سل عما بدا لك، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال، إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن. قال فما تقول في؟ قال: أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة. قال فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج ضعوا عليه العذاب. قال فانتهى به العذاب إلى أن شُقِق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا. قال فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيط ألك حاجة؟ قال **شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه**. وعن الشافعي رضي الله عنه قال حدثني عمي محمد بن علي قال إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد، قال فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب، قال فسأله فقال ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيرو الأذى لهم. فقال أبو جعفر قد سمعتم، فقال الغفاريون يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد. فقال يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه. فقال قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح. فقال يا أمير المؤمنين اسأله عن نفسك. فقال ما تقول في؟ قال تعفيني يا أمير المؤمنين. قال أسألك بالله إلا أخبرتني. قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك. قال: والله لتخبرني. قال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك

فاش. قال فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. قال فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين قد وُلي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم. قال فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله. وقال والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي. قال فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له يا أبا الحرث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي. فقال يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد. وعن ابن المهاجر قال قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يُعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس. فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينا هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع. فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه، فأتاه الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني. فقال يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل. فقال له أنت آمن على نفسك. فقال: الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت. فقال ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحجبة معهم السلاح، ثم سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة، إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يُحجبوا عنك تجبى الأموال ولا تقسمها، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سُخر لنا، فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقَّفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه، فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره، وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير، فما بقاء الإسلام

وأهله على هذا. ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رُفعت ظلامته إليهم فيُنصف. ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك، فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف. ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه مالك تبكي لا بكت عيناك؟ فقال أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه. هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة: إن قلت أجمعها لولدي فقد أراك الله عبرا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي بل الله يعطي من يشاء. وإن قلت أجمع المال لأشيد سلطاني فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك، ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع، وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد. وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تُدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل؟ قال لا. قال: فكيف تصنع بالمُلك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم، وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك، فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب، هل يُغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا؟ فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته، ثم قال يا ليتني لم أخلق ولم أك شيئا؟ ثم قال كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا؟ قال يا أمير المؤمنين عليك بالإئمة الأعلام المرشدين. قال ومن هم؟ قال العلماء. قال قد فروا مني. قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك. فقال المنصور اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل. وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسي عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك واغتاظ عليه غيظا شديدا. فخرج الحرسي يطلب الرجل فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب، فقعد حتى صلى ثم قال يا ذا الرجل أما تتقي الله؟ قال بلى. قال أما تعرفه؟ قال بلى. قال فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آته بك. قال ليس لي إلى ذلك من سبيل. قال يقتلني. قال لا. قال كيف؟ قال تحسن تقرأ؟ قال لا فأخرج من مزود كان معه رقا مكتوبا فيه شيء فقال خذه فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج. قال وما دعاء الفرج؟ قال لا يرزقه إلا الشهداء. قلت رحمك الله قد أحسنت إلي فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله؟ قال من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا: تقول اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكان وساوس الصدور كالعلانية

عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا. اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فعد بفضلك وإحسانك علي، إنك أنت التواب الرحيم. قال فأخذته فصيرته في جيبي ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلي وتبسم ثم قال: ويلك وتحسن السحر؟ فقلت لا والله يا أمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أمري مع الشيخ، فقال هات الرق الذي أعطاك؟ ثم جعل يبكي وقال وقد نجوت وأمر بنسخه، وأعطاني عشرة آلاف ثم قال أتعرفه؟ قلت لا قال ذلك الخضر عليه السلام.

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته، حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى فلم يروا في الكونين شيئا سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعهم نغمه سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مهيج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ولا إنبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه فمنه سماعهم وإليه استماعهم فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته وسلم كثيرا.

أما بعد فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر، كما أُخفي الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع. فالنغمات الموزونة المستلذة تُخرج ما فيها وتُظهر محاسنها أو مساويها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه، كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه. فالسماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق، فلا يصل نفس السماع إليه إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه. وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكامنها وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات. ونحن نوضح ذلك في بابين: الباب الأول في إباحة السماع، الباب الثاني في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب.

الباب الأول: في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر، ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص. فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول، وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه، ثم نذكر الدليل على إباحته، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه. فأما نقل المذاهب فقد حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظا يُستدل بها على أنهم رأوا تحريمه وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وقال القاضي أبو الطيب استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه

الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب، وسواء كانت حرة أو مملوكة. وقال: قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُرد شهادته، وقال وحُكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن، وقال الشافعي رحمه الله: ويُكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا أحب اللعب بالشطرنج، وأكره كل ما يلعب به الناس، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة. وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده، وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم. فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري. ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة، فقال سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم، وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان، وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يُسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية. قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطي وذو النون يستمعون؟ فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني، فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع، وإنما أُنكر اللهو واللعب في السماع. ورُوي عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة، حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء. ورأيت في بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره. وعن ابن جريج انه كان يرخص في السماع، فقيل له أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال لا في الحسنات ولا في السيئات، لأنه شبيه باللغو، وقال الله تعالى:{لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم}. هذا ما نقل من الأقاويل، ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل، فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهي، وكل ذلك قصور، بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه، وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والاباحة.

بيان الدليل على إباحة السماع: اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع، ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص، وأعني بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله. فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات. ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس. ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم. ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض. لكن نستفتح ونقول قد دل النص والقياس جميعا على إباحته، أما القياس فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يُبحث عن إفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب. فالوصف الأعم أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات. أما سماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب فلا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس، أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس، ولكل

حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة ما يُستلذ. فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة، وهي في مقابلة ما يُكره من الألوان الكدرة القبيحة. وللشم الروائح الطيبة وهي في مقابلة الأنتان المستكرهة. وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة وهي في مقابلة المرارة المستبشعة. وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهي في مقابلة الخشونة والضراسة. وللعقل لذة العلم والمعرفة وهي في مقابلة الجهل والبلادة. فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة، كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها. أما النص فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال:{يزيد في الخلق ما يشاء}، فقيل هو الصوت الحسن، وقول الله تعالى:{إن أنكر الأصوات لصوت الحمير}، يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن. ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن، وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يُفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة، وإن من الشعر لحكمة. فهذا نظر في الصوت من حيث أنه طيب حسن. الدرجة الثانية النظر في الصوت الطيب الموزون. فإن الوزن وراء الحُسن، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب. والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة، فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان، وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره، كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور، فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع، فلذلك يُستلذ سماعها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة، فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة، ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي، كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره، ولا يُستثنى من هذه إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها[٣٢٥]. قال أبو داود وهو منكر لا للذتها، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان، ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط وكان تحريمها من قبل الأتباع، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر. وما من حرام إلا وله حريم يطيف به وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمى للحرام ووقاية له وحظارا مانعا حوله. فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل، إحداها أنها تدعو إلى شرب الخمر، فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر، ولمثل هذه العلة حُرم قليل الخمر. الثانية أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب، فهي سبب الذكر، والذكر سبب إنبعاث الشوق، وإنبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام. فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب، فهو منهى عن السماع لخصوص هذه

[325] حديث المنع من الملاهي والأوتار والمزامير أخرجه البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والمعازف صورته عند البخاري صورة التعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلي والمعازف الملاهي قاله الجوهري ولأحمد من حديث أبي أمامة إن الله أمرني أن أمحق المزامير والكيارات يعني البرابط والمعازف وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة إن ربي حرم علي الخمر والكوبة والقنين وله في حديث لأبي أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف وكلها ضعيفة ولأبي الشيخ من حديث مرسلا الاستماع إلى الملاهي معصية الحديث ولأبي داود من حديث ابن عمر سمع مزمارا فوضع أصبعيه على أذنيه.

العلة فيه. الثالثة، الاجتماع عليها لما أن صار من عادة أهل الفسق، فيمنع من التشبه بهم، لأن من تشبه بقوم فهو منهم. وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم. فبهذه المعاني حرم المزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها، وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب، لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها، فلم يكن في معناها فبقى على أصل الإباحة قياسا على أصوات الطيور وغيرها. بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا. وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد. قال الله تعالى: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق}. فهذه الأصوات لا تحرم من حيث أنها أصوات موزونة، وإنما تحرم بعارض آخر كما سيأتي في العوارض المحرمة. الدرجة الثالثة، الموزون والمفهوم، وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان، فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما، والكلام المفهوم غير حرام، والصوت الطيب الموزون غير حرام. فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع! نعم يُنظر فيما يفهم منه، فإن كان فيه أمر محظور حُرم نثره ونظمه، وحرم النطق به سواء كان بألحان أو لم يكن، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله، إذ قال: الشعر كلام، فحسنه حسن وقبيحه قبيح. ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان. فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا، ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم، إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد، ولا محظور ههنا. وكيف يُنكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم (متفق عليه). وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لا هم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة[٣٢٦]. وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحدى له في السفر وأن أنجشة كان يحدو بالنساء والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير. ولم يزل الحداء وراه الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضي الله عنهم، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة. الدرجة الرابعة، النظر فيه من حيث أنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه. فأقول لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا، فمن الأصوات ما يُفرح، ومنها ما يُحزن، ومنها ما يُنوم، ومنها ما يُضحك ويطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا

---

[326] حديث كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة قال المصنف والبيتان في الصحيحين قلت البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية عروة مرسلا وفيه البيت الثاني أيضا إلا أنه قال الأجر بدل العيش تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي قال ابن شهاب ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة وليس البيت الثاني موزونا وفي الصحيحين أيضا أنه قال في حفر الخندق بلفظ فبارك في الأنصار والمهاجره وفي رواية فاغفر وفي رواية لمسلم فأكرم ولهما من حديث سهل بن سعد فاغفر للمهاجرين والأنصار وهذه في الصحيحين.

ينبغي أن يُظن أن ذلك لفهم معاني الشعر، بل جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج. وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده، فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه؛ والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحادي ناصبة آذانها، وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها. فإذن تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجِمال والطيور، بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة. ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب، لم يجز أن يُحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص، واختلاف طرق النغمات. فحكمه حكم ما في القلب، قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه. فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع: الأول غناء الحجيج، فإنهم أولا يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء، وذلك مباح لأنها أشعار نُظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر، ووصف البادية وغيرها، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى، واشتعال نيرانه إن كان ثَم شوق حاصل، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا، وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محمودا كان التشويق إليه بكل ما يشوق محمودا. وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه، جاز لغيره ذلك على نظم الشعر، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير وكل ذلك جائز، ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار. الثاني، ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو، وذلك أيضا مباح كما للحاج، ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم، لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال، بالإضافة إليه بالأشعار المشجعة مثل قول المتنبي فإن لا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكرم، وقوله أيضا يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم وأمثال ذلك، وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة، وهذا أيضا مباح في وقت يباح فيه الغزو ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو. الثالث الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس، وذلك مباح في كل قتال مباح، ومندوب في قتال مندوب، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة وكل قتال محظور، لأن تحريك الدواعي إلى المحظور محظور. ولذلك نقول ينبغي أن يُمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة، فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة. الرابع، أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة. والحزن قسمان محمود ومذموم. فأما المذموم فكالحزن على ما فات، قال الله تعالى: {لكيلا تأسوا على ما فاتكم}، والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى

وتأسف على ما لا تدارك له. فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه بالنياحة مذموما، فلذلك ورد النهي الصريح عن النياحة (حديث النهي عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية: أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا ننوح). وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه، والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود، وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك. وذلك محمود لأن المفضى إلى المحمود محمود. الخامس: السماع في أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا كالغناء في أيام العيد، وفي العرس، وفي وقت قدوم الغائب، وفي وقت الوليمة والعقيقة، وعند ولادة المولود وعند ختانه، وعند حفظه القرآن العزيز. وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به، ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب، فكل ما جاز السرور به جاز إثاره السرور فيه، ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع، فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم، وهو سرور محمود فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود، وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفي كل سبب مباح من أسباب السرور، ويدل على هذا ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأمه[٣٢٧]. فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام، وفيها دلالة على أنواع من الرخص؛ الأول اللعب، ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب، والثاني فعل ذلك في المسجد، والثالث قوله صلى الله عليه وسلم دونكم يا بني أرفدة، وهذا أمر باللعب والتماس له فكيف يقدر كونه حراما؟ والرابع منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد، أي هو وقت سرور، وهذا من أسباب السرور. والخامس وقوفه طويلا في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها، وفيه دليل على أن حسن الخلق في تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف في الامتناع والمنع منه. والسادس قوله صلى الله

[327] حديث عائشة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد الحديث هو كما ذكره المصنف أيضا في الصحيحين لكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها وروى البخاري ومسلم أيضا في صحيحيهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد. وقالت عائشة رضى الله عنها رأيت صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يا بني أرفدة حديث عائشة رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمنا يا بني أرفدة تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم إلى آخره فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أمنا يا بني أرفدة بل قال دعهم يا عمر زاد النسائي فإنما هم بنو أرفدة ولهما من حديث عائشة دونكم بني أرفدة وقد ذكره المصنف بعد هذا يعني من الأمن ومن حديث عمرو بن الحرث عن ابن شهاب نحوه وفيه تغنيان وتضربان حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه يغنيان ويضربان رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب وفي حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسترني بثوبه أو بردائه لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف حديث أبي طاهر عن ابن وهب والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم الحديث رواه مسلم أيضا.

عليه وسلم ابتداء لعائشة: أتشتهين أن تنظري؟ ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة، فإن الإلتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور، فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه. والسابع، الرخصة في الغناء والضرب بالدف من الجاريتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان، وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك. والثامن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع، ولو كان يضرب بالأوتار في موضع لما جوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة. فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج في أوقات السرور كلها، قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور، وفي معناه يوم العرس والوليمة والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح، وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا. ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنه السماع. السادس: سماع العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس، فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق، والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة، إذا انضاف إليه رجاء الوصال. فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو، ففي هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال، مع الإطناب في وصف حسن المحبوب، وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله، كمن يعشق زوجته أو سريته فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسماع الأذن، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب فتترادف أسباب اللذة. فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وهذا منه. وأما من يتمثل في نفسه صورة **صبي** أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام، لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه. وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك، وذلك ممنوع في حقهم لما فيه من الداء الدفين لا لأمر يرجع إلى نفس السماع. ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيجه السماع. السابع: سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه. فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا، مأخوذ من الوجود والمصادفة، أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات، كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث. فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع. فإن قلت فهل له حالة يحرم فيها؟ فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض. عارض في المُسمِع، وعارض في آلة الإسماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق، لأن أركان السماع هي المسمع والمستمع وآلة الإسماع. العارض الأول، أن يكون المُسمِع امرأة لا يحل النظر إليها وتُخشى الفتنة من سماعها، **وفي معناها الصبي الأمرد الذي تُخشى فتنته**، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا،

و**كذلك الصبي الذي تُخاف فتنته**، فإن قلت فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب أو لا يحرم إلا حيث تُخاف الفتنة في حق من يخاف العنت؟ فأقول هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان، أحدهما أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف، لأنها مظنة الفتنة على الجملة، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور. والثاني أن النظر إلى **الصبيان** مباح إلا عند خوف الفتنة، فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم، بل يتبع فيه الحال. وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب، وهو قياس قريب ولكن بينهما فرق، إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع، بل هو أشد، وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك، ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة، فقياس هذا على **النظر إلى الصبيان** أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه. هذا هو الأقيس عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها، إذ يُعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه، فلذلك لم يحترز. فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا، ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال فإنا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك، لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محظور، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص. العارض الثاني في الآلة، بأن تكون من شعار أهل الشرف أو المخنثين، وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة، كالدف وإن كان فيه الجلاجل وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات. العارض الثالث في نظم الصوت، وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم،كما رتبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك للقائل. وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال. فأما النسيب، وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر. والصحيح أنه لا يُحَرَم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن، وعلى المستمع أن لا يُنَزِّله على امرأة معينة، فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته، فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه. ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأسا، فإن من غلب عليه عشق نزَّل كل ما يسمعه عليه سوء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الإستعارة. فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر، وبنضارة الخد نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ. العارض الرابع في المستمع وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه، وكان في غرة الشباب، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب. فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة، ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر. والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص، فليخرج

مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به. العارض الخامس أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى، فيكون السماع له محبوبا ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظورا، ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية. ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة. ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات بالجد الدنيا كالكسب والتجارة، أو في الدين كالصلاة والقراءة. فإن قلت فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض، فلم أطلقت القول أولا بالاباحة، إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ. فاعلم أن هذا غلط، لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من غير ما فيه النظر، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق. والسماع من جملة المباحات من حيث أنه سماع صوت طيب موزون مفهوم، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته، فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالي بمن يخالف بعد ظهور الدليل. وأما الشافعي رضي الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا، وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذه صناعة لا تجوز شهادته، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل ومن اتخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة، وإن لم يكن محرما بين التحريم، فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء، ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله، وإنما يُعرف بأنه قد يطرب في الحال فيترنم بها، لم يُسقط هذا مروءته ولم يُبطل شهادته. وقال يونس بن عبد الأعلى سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع، فقال الشافعي: لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في الأوصاف، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح. وحيث قال إنه لهو مكروه يشبه الباطل فقوله لهو صحيح، ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام، فلعب الحبشة ورقصهم لهو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه، بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عني به أنه فعل ما لا فائدة فيه، فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم، قال الله تعالى:{لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم}، فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه، لا يؤاخذ، فكيف يؤاخذ به بالشعر والرقص. وأما قوله يشبه الباطل فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه، بل لو قال هو باطل صريحا لما دل على التحريم، وإنما يدل على خلوه عن الفائدة. فالباطل ما لا فائدة فيه، فقول الرجل لامرأته مثلا بعت نفسي منك وقولها اشتريت عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة وليس بحرام إلا إذا قصد به التمليك المحقق منع الشرع منه. وأما قوله مكروه فينزل بعض المواضع التي ذكرتها لك، أو ينزل على التنزيه، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج، وذكر أني أكره لعبه، وتعليله يدل عليه، فإنه قال ليس ذلك من عادة ذوي الدين والمروءة فهذا يدل على التنزيه، ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضا، بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق وما يحرم المروءة، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوي المروءة. فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه، وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم.

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها: احتجوا بقوله تعالى:{ومن الناس من يشتري لهو الحديث}، قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم إن لهو الحديث هو الغناء. وروت عائشة رضي الله

عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها"[٣٢٨]، فنقول أما القينة فالمراد بها الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب، وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور. فأما غناء الجارية لمالكها فلا يُفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة، بدليل ما روي في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها. وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالا به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى وهو المراد في الآية، ولو قُرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما. حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم واحتجوا بقوله تعالى:{أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون}، قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الغناء بلغة حمير، يعني السمد. فنقول ينبغي أن يُحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه. فإن قيل إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم، فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى:{والشعراء يتبعهم الغاوون}، وأراد به شعراء الكفار، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه... قلنا هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان، بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح. فالتجويز في موضع واحد نصٌ في الإباحة، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل، أما الفعل فلا تأويل له إذ ما حُرم فعله، إنما يحل بعارض الإكراه فقط، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود. واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته"[٣٢٩]، قلنا فقوله باطل لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة، وقد يسلم ذلك على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث"، فإنه يلحق به رابع وخامس، فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ، وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها، وإن جاز وصفه بأنه باطل. واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه الغناء ينبت في القلب النفاق، وزاد بعضهم كما ينبت الماء البقل. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله الغناء رقية الزنا، وقال بعضهم الغناء رائد من رواد الفجور، وقال يزيد بن الوليد إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا. فنقول قول ابن مسعود رضي الله عنه ينبت النفاق أراد به في حق المغنى فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضا لا يوجب تحريما فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث

---

[328] حديث عائشة إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف قال البيهقي ليس بمحفوظ.

[329] حديث عقبة بن عامر كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب.

والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيرا، ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته، فهذا النفاق من المباحات. وأما قول الفضيل هو رقية الزنا وكذلك ما عداه من الأقاويل القريبة منه فهو منزل على سماع الفساق **والمغتلمين** من الشبان، ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إني أقول اللهو مروح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر، والقلوب إذا أكرهت عميت، وترويحها إعانة لها على الجد. فالمواظب على التفقة مثلا ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغى أن يتعطل في بعض الأوقات، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات. فالعطلة معونة على العمل، واللهو معين على الجد، ولا يصبر على الجد المحض والحق المر إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام. فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال، فينبغي أن يكون مباحا، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء. فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة، هذا في حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها، بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه. نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال، فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه.